وائل هادي الحفظي

ترف الانكفاء

رواية

دار الآداب

telegram @soramnqraa

telegram @soramnqraa

وائل هادي الحفظي

ترف الانكفاء

رواية

دار الآداب

telegram @soramnqraa

ترف الانكفاء

وائل هادي الحفظي / روائيّ سعوديّ

الطبعة الأولى عام 2025

ISBN 978-9953-89-779-0

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيٍّ جزءٍ منه، أو تخزينِه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقلِه بأيّ شكلٍ من الأشكال، من دون إذنٍ خطّيٍّ مسبَّقٍ من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع

للمزيد من المعلومات عن دار الآداب الرجاء زيارة

موقعنا www.daraladab.net

يمكنكم التواصل معنا على البريد الإلكترونيّ:

info@daraladab.net

rana.adab@gmail.com

Facebook: Dar Al Adab Instagram: @daraladab Twitter: @DarAlAdab

telegram @soramnqraa

تقرير جائزة أسماء صدِّيق للرواية الأولى الدورة الثالثة، 2025

شهدت جائزة أسماء صدِّيق للرواية الأولى في دورتها الثالثة تحوُّلاتٍ نوعيَّةً في الأعمال المشاركة، كمًّا وكيفًا، ممَّا يؤكِّد أنَّ المسابقة قد رسَّخت نفسها ضمن خارطة الجوائز الإبداعيَّة العربيَّة، وصارت تحظى باهتمامٍ متزايدٍ من طرف المؤلِّفين والنقَّاد والإعلاميين. وقد عرفت المسابقة هذا العام إقبالًا كبيرًا من طرف الكتَّاب، حيث استقبلت اللجنة المنظِّمة 355 رواية خلال الفترة الممتدَّة من 1 مارس 2024 حتى 30 سبتمبر 2025. خضعت جميع المشاركات لعمليَّة فرزٍ وتحكيم صارمةٍ لضمان الالتزام بالمعايير المحدَّدة للمسابقة. وبعد عمليَّات الفرز الأولى استقرَّ الأمر على 224 رواية، استوفت شروط المشاركة في الجائزة، وخضعت بالتالي لعمليَّة التحكيم التي مرّت من عدَّة مراحل، انتهت بوقوع الاختيار على 11 رواية ضمن لائحةٍ نهائيَّة، أُعيدت

قراءتها ومناقشتها. تناولت الروايات هذه السنة موضوعاتٍ متنوِّعةً تعكس اهتماماتٍ عديدة، وتلامس حساسيَّاتٍ وأجيالًا مختلفة، وتغطِّي مختلف ربوع العالم العربيّ.

وبعد نقاشاتٍ مستفيضةٍ استقرَّ رأي قارئات الملتقى ولجنة التحكيم على اختيار رواية «ترف الانكفاء» للمؤلِّف السعوديّ وائل هادي الحفظي فائزةً بجائزة أسماء الصدِّيق في دورتها الثالثة، الموافقة لسنة 2025 للميلاد.

لقد جاءت رواية ترف الانكفاء مخالفةً للسائد من الكتابة، وموافقةً لحساسيَّة جيلٍ جديد. روايةٌ تعكس إشكاليَّات الانكفاء على الذات والانسحاب من عالم العلاقات الإنسانيَّة بما يفرضه من مقاييس اجتماعيَّةٍ ومواضعاتٍ وظيفيَّةٍ تهمل الجوهريّ في الإنسان، أي فردانيَّته وخصوصيَّته وتميُّزه. إنَّ الرواية التي قد تُقرأ من طرف القرَّاء وفق مستوياتٍ مختلفةٍ وتأويلاتٍ عديدة، تقف على عددٍ من المشاكل التي صار يعاني منها الإنسان المعاصر، لا سيَّما فئة الشباب، الإنسان الذي فُرض عليه أن يؤدِّي أدوارًا اجتماعيَّةً محدَّدةً سلفًا، وأن يكون مجرَّد ترسٍ في آلةٍ اقتصاديَّةٍ وتسويقيَّةٍ هائلة، تسلبه كلّ إمكانٍ للتفكير أو الإبداع... آلةٌ نهايتها الاحتراق الوظيفيّ أو الاكتئاب أو الاستيلاب أو الاستسلام والسير مسرى القطيع... وقد وُفِّق المؤلِّف الشابّ في أن يراوح بالقارئ بين عالمَيْن (عالمٍ داخليٍّ مصطخبٍ بالأفكار، عامرٍ بالتأمُّلات، وعالمٍ خارجيٍّ ينصبُ الفخاخَ للنفسِ والجسد)، روايةٌ تحوِّل مساحة غرفةٍ ضيِّقةٍ إلى أفقٍ فسيحٍ مصطخبٍ بالتأمُّل والفلسفة... روايةٌ ظاهرها قاتمٌ، لكنَّ باطنها مشرقٌ متألِّق...

يكفي أن نحرِّك الرماد لكي يطلع من تحته لهبُ الجمر متأجِّجًا.

إنَّنا سعداء، في جائزة أسماء صدِّيق، أن نشهد تواصل هذا الزخم الإبداعيّ من طرف المؤلِّفين الشباب، وأن يتواصل بروز أعمالٍ إبداعيَّةٍ نوعيَّةٍ ومختلفة، وأن نقدِّم للقارئ العربيّ في كلِّ مرَّةٍ مشروعَ روائيٍّ متفرِّد، وأن نقف على شتلاتِ إبداعٍ في كلِّ شبرٍ من ربوع بلادنا العربيَّة.

لجنة القراءة

رنا سهيل إدريس

المديرة العامَّة لدار الآداب للنشر والتوزيع منذ عام 1986 حتى اليوم.

عضو مجلس الأمناء في جائزة بوكر للرواية العربيَّة بين عام 2019 وعام 2021.

محكَّمةٌ في جائزة محترف نجوى بركات للكتابة الإبداعيَّة بالتعاون مع وزارة الثقافة في البحرين.

بإدارة رنا إدريس، نالت دار الآداب جائزة الشارقة لأفضل دار نشرٍ عربيَّةٍ وجائزة الدرع المغربيّ الملكيّ لأفضل دار نشر عربيَّة، كما أُدرجت الدار ضمن اللائحة القصيرة لجائزة الشيخ زايد لأفضل دارٍ عربيَّة، ونالت جائزة London Bookfair Excellence award 2020 for Adult Publishing.

شيرين أبو النجا

هي أستاذة الأدب الإنجليزيّ والمقارن، وتُدرِّس الأدب العربيّ بالجامعة الأميركيَّة بالقاهرة بشكلٍ جزئيٍّ. لها العديد من الأبحاث النقديَّة المنشورة باللغة الإنجليزيَّة واللغة العربيَّة في دوريَّاتٍ أدبيَّةٍ وثقافيَّةٍ محكمة، مع التركيز على مسألة الجندر وتجلِّياته في الآداب والفنون. صدر لها باللغة العربيَّة: عاطفة الاختلاف: قراءةٌ في نصوص نسويَّة (1997)، نسويٌّ أم نسائيّ؟ (2001)، مفهوم الوطن في فكر الكاتبة العربيَّة (2003)، صورة الحجاب: محلِّي أم عولميّ (2007)، المثقَّف الانتقالي بين الاستبداد والتمرُّد (2014). صدر لها مؤخَّرًا ـ 2024 ـ كتاب رحم العالم: أمومةٌ عابرةٌ للحدود عن دار تنمية بالقاهرة.

وطبقًا لوعيها بموقعها في الجنوب العالميّ فهي ترى العالم من خلال منظورٍ نسويٍّ لا يهمل تقاطع عوامل أخرى في تشكيل الهويَّات واشتباكها مع تجلِّيات الأبويَّة الجديدة، وهو ما يساهم في صعود النصّ الجديد كعلامة مقاومة.

دكتور محمَّد آيت حنَّا

محمَّد آيت حنَّا كاتبٌ ومترجمٌ مغربيٌّ مهتمٌّ بالفلسفة والأدب والجماليَّات. حصل على شهادة التبريز في الفلسفة، والدكتوراه في الفلسفة وتاريخ الفنّ. أستاذٌ بجامعة محمَّد الخامس بالرباط. شارك في لجان تحكيم عدد من الجوائز. من مؤلَّفاته: الرغبة والفلسفة، مدخل إلى قراءة دولوز وغوتاري (2010)؛ القصَّة والتشكيل: نماذج مغربيَّة (2012)؛ مكتباتهم (2017)؛ الحديقة

telegram @soramnqraa

الحمراء (رواية، 2018). ومن بين أعماله في الترجمة: كاظم جهاد: حصَّة الغريب، شعريَّة الترجمة وترجمة الشعر عند العرب (2011)؛ أندريه ميكيل: العالم والبلدان (2016)؛ جان هيرش: الدهشة الفلسفيَّة، تاريخ للفلسفة (2018)؛ ألكسندر دوما: جورج (2014) وكونتمونتكريستو (2021).

طارق بن صالح الخواجي

كاتبٌ وناقدٌ سينمائيّ.

يعمل مستشارًا ثقافيًّا في مركز الملك عبد العزيز الثقافيّ العالميّ وهو الأمين العامّ لمكتبة إثراء.

كتب في صحف الرياض والوطن السعوديَّة والشرق الأوسط والحياة ونشر كتابي قلعة الأنمي: تجربة اقتحام والعازف على بوَّابات الفجر.

مقدِّمٌ مشاركٌ في برنامج سينماك على قناة الثقافيَّة وشاهد.

حكَّم في العديد من المسابقات في السينما والقصَّة القصيرة والرواية والرواية المصوَّرة، وعمل مستشارًا لعددٍ من الهيئات الثقافيَّة السعوديَّة والعربيَّة.

قدَّم ورشًا في الكتابة الإبداعيَّة والنقد السينمائيّ وتاريخ السينما وجماليَّاتها.

إلى كلِّ أولئك الذين تماسكوا بينما تتداعى الأشياء حولهم.

«تَعَبٌ كلُّها الحياةُ فما أعجبُ   إلَّا مِـــن راغـــبٍ فـــي ازديـــادِ»

أبو العلاء المعرِّي

1

تنتابني رغبةٌ ملحَّةٌ في أن أكتب. محاولاتٌ كثيرةٌ سبقت هذه المحاولة، لكنَّها انتهت جميعًا قبل أن تكتملَ الصفحةُ الأولى. أذكر مرَّةً وحيدةً كتبتُ فيها أكثر من عشر صفحات، ثم فجأةً قرَّرتُ أن أحذف كلَّ ما كتبْت. شيءٌ بداخلي لا ينفكُّ يُذكِّرني بأنْ لا شيء يستحقُّ أن أكتب لأجله، بل أكثر، لا شيء يستحقُّ أن أفعل شيئًا لأجله. إنَّ هذا المنبِّه في رأسي يجعل الحياة أسهل، سهولةً مفرطة؛ يجعلها سهلةً حتى تفقدَ دهشتها.

لكن تبدو هذه المرَّة مختلفة، على الأقلِّ حتى اللحظة؛ فكلُّ جملةٍ ترتسم على شاشة الحاسوب، بعد أن تنتقل من أصابعي إلى لوحة المفاتيح، تشبك ذيلها برأسِ جملةٍ أخرى. بهذه الطريقة تنسابُ الجمل من بين يدَيّ، كأنَّما خُلِقتُ لأكتب، وكأنَّ كلَّ شيءٍ يستحقُّ أن أكتب لأجله، بل وكأنَّ المنبِّه قرَّر أخيرًا أن يكفَّ عن وسوسته ويصمت. وليت صمته يطول!

برقتْ في بالي خاطرة. فكَّرتُ في ذاك الذي انتبه أوَّل مرَّةٍ إلى ضرورة وجود المنبِّهات. كيف للإنسان أن يكون أخرق إلى هذه الدرجة؟! كيف يلتزم بشيءٍ التزامًا مفرطًا، متطرِّفًا، يقوده إلى التفكير في هذا الابتكار البليد؟ ابتكارٌ نصَبَه هدفًا للعناتِ الأجيال منذ منبِّهه «التقليديِّ» الأوَّل، وحتى المنبِّهات «المتطوِّرة» الحاليَّة. لعناتٌ كلَّ يوم، صباحَ مساء. ربَّما يجدر بي أن أبحث عن اسمه ـ أتمنَّى ألَّا يكون هو أيضًا ممَّن يطلقون عليهم لقب عالم ـ ثم أزور قبره لأبوِّل عليه. وقبل أن أُغادر القبر أضع عند شاهدته منبِّهًا مضبوطًا على نغمة الصراخ، بصوتٍ لا يَسُهل عليه اعتياده، كلَّ نصف ساعة، أو أقلّ، حتى يستمتع بصوت اختراعه اللعين!

أعرف يقينًا أولئك الذين يُبجِّلون هذا الاختراع؛ أُناسٌ لم يتمكَّنوا قطُّ من إضفاء معنى على حيواتهم، أُناسٌ فارغةٌ أرواحهم، ليس يملؤها إلَّا صوت المنبِّهات، وهدير المحرِّكات، وصراخ المدراء.

في المدَّة القليلة التي سبقت تركي عملي، قرَّرتُ ألَّا أضبط منبِّهي ليرنَّ قبل الموعد الذي يُفترض أن أصل فيه إلى مكتبي بساعةٍ ـ ذلك ما كنت أقوم به على أيِّ حال ـ وكأنَّ مستقبلَ العالم المشرق كلَّه يتوقَّف على أن أصل إلى عملي في الوقت المحدَّد، وكأنَّ عجلة التنمية المتدحرجة أصلًا إلى الخلف رهينةٌ بي أنا، كأنَّما أنا الوحيد الذي بوسعه أن يُعيد توجيهها إلى مسارها الصحيح، على افتراض أنَّ ثمَّة مسارًا صحيحًا يمكن أن تتَّبعه أيَّة عجلة! على أنَّني ما لبثتُ أن أيقنتُ أنَّ العجلة ليست في حقيقتها سوى عجلة هامستر، فاتَّخذت لنفسي منبِّهًا جديدًا:

telegram @soramnqraa

أستيقظُ متى ما أخذتُ كفايتي من النوم. إنَّها لنشوةٌ عظيمةٌ أن أتخفَّف من هذا العالم وأنام بلا منغِّصات. سيكون بإمكاني على الأقلِّ حينها أن أركض داخل العجلة بمزاجٍ يكفي لثماني ساعات. ثم قرَّرتُ أن أخرج من صورة الهامستر.

لم أقابل كائنًا حيًّا خلال أسبوعٍ كامل. لا بدَّ أنَّ القطَّة أسفل سلالم البناية افتقدت قمامتي التي تقتات عليها. تعمَّدتُ ألَّا أُبقِي لها إلَّا نُزُرًا يسيرًا. لماذا عساني أفعل غير ذاك؟ هناك ما يكفي من البشر الذين يحبُّون أن يُقتات على فضلاتهم، بل إنَّهم يقتاتون بدورهم على فضلات الآخرين. إنَّهم كالقطط تمامًا. في الغالب، ينتابني شعورٌ بأنَّ الإنسان، كما هو اليوم، وكما كان أمس، وربَّما كما سيكون غدًا، لا يختلفُ عن القطَّة التي تعيش بالأسفل. في أحيانٍ كثيرةٍ أراها تترك القمامة التي لا تحوي بقايا شهيَّةٍ بالنسبة إليها، ويومًا بعد يوم أُلاحظ أنَّها باتت أكثر انتقائيَّة، حتى إنَّ علب التونة التي أتركُ فيها ثلثي محتواها ما عادت تستثير فيها رغبة الأكل. ولم تكن تلك حال القطَّة قبل أن تكتظَّ البناية بالسكَّان؛ أمَّا اليوم فلها رفاهية الانتقاء، حتى إنَّها غدت تميل إلى بقايا الأطباق المطبوخة بعناية، وتلعق بشراهة تلك الصلصات المختلفة. لن أتفاجأ لو رأيتُها تستفرغ جرَّاء تناولها وصفةً آسيويَّةً من تلك التي تحتوي مزيجًا بين المملَّح والمُحلَّى كما أفعل، ولعلَّها تنطق يومًا من الأيَّام رافضةً هذا النوع من الوصفات، وتطلب قطع لحمٍ من النوع الراقي والفاخر. إنَّه لمن المنطقيِّ أن يكون هذا هو سببُ تحوُّلنا إلى مخلوقاتٍ ناطقة، في زمنٍ موغلٍ في القِدم.

كنتُ أقول إنَّ أسبوعًا كاملًا مرَّ من دون أن أُقابل كائنًا حيًّا. لا أدري إن كان هذا كفيلًا بأن يُدخلني موسوعة الأرقام القياسيَّة! أيُّ إهانةٍ في أن تجد اسمَك بين الأسماء المدوَّنة في الموسوعة، ولا إنجاز لكَ سوى أنَّكَ لم تقابل أحدًا من الخلق! ثم ما معنى أن يفكِّر أحدهم في وضع موسوعةٍ يُدوِّن فيها الأرقام القياسيَّة من كلِّ فنٍّ ولون؟! كنت فيما مضى أحسب أنَّ التساؤلات الكبرى والوجوديَّة هي تلك التي قد تصعب الإجابة عنها، والحال أنَّ كثيرًا من الأمور السخيفة يجدر بالمرء أن يؤمن بها كما هي، لأنْ لا إجاباتٍ كافية عنها.

أكوامٌ من القمامة بدأت تتراكم حولي. أكاد لا أقوم من سريري إلَّا لقضاء حاجتي، أو تحضير وجبةٍ خفيفةٍ تطفئ لهيب الحموضة التي تأكل جوفي من فرط بقائي جائعًا. حاجاتي الحيوانيَّة هي وحدها ما يحفِّزني على الحركة، وحين أتفكَّر فيها أوقنُ أنَّ الرغبة في البقاء هي المحفِّز الرئيس. سحبتُ حاسوبي المحمول لأراجع هرم ماسلو. لقد كان بديهيًّا جدًّا، لدرجة أنَّني في أسبوعٍ واحدٍ من البقاء وحيدًا، في شقَّةٍ لا تتجاوز مساحتها تسعين مترًا مربَّعًا، استنتجت خُمسَ هرمه. ولكن علينا ألَّا نغفل دائمًا عن أنَّه كان أبيض بما يكفي لينال استحقاق هذا الاحتفاء باسمه. بدأتُ أتمعَّن في الهرم جيِّدًا، وبدأتُ على نحوٍ غريبٍ أقارن بين تقسيماته وما مررتُ بهِ خلال هذا الأسبوع. حاولت أن أكون المجرِّب والمجرَّب في آنٍ واحد: الباحثَ وفأرَ التجارب. لا جديد! لا يزال الهرم على حاله كما كان حين اطَّلعتُ عليه منذ وقتٍ بعيد: الحاجات الفيسيولوجيَّة هي قاعدة الهرم، الجنس

واحدٌ منها. وقد توقَّفتُ برهةً عند مسألة الجنس، وتردَّدتُ في أن أحسم أمره: لقد كان من الممكن أن أرقِّيه إلى مرتبةٍ أسمى، فأجعله متأخِّرًا عن غيره من الحاجات، لولا أن تذكَّرتُ عدد المرَّات التي استمنيتُ فيها هذا الأسبوع، فارتأيتُ أنَّه موضوعٌ في مكانه المناسب، بحيث لا سبيل إلى تقديمه أو تأخيره. ربَّما كان هو الدافع الأساس لاحتفاء الناس بهرم ماسلو.

* * *

استيقظتُ في منتصف الظهيرة. عرفتُ الوقتَ من خيط الضوء السمينِ المزعج الذي يقتحم عينَيّ، قادمًا من منتصف الستارة المنسدلة على نافذةٍ في الجهة المقابلة لسريري. مكثتُ تحت لحافي برهة، أتَّقي ضوء الشمس، قبل أن أعزم أمري فأنهض من سريري كي أُعيد قماشة الستارة القاتمة إلى مكانها الصحيح. ولأنَّني إذا برحتُ مكاني يبرحُ النوم عينيَّ مباشرة، فقد عدتُ إلى سريري وتناولتُ علبة سجائري، التي لا تكفُّ تذكِّرني بأنَّ ما أنا بصدد إشعاله هو من بين المسبِّبات الرئيسيَّة لإمكان اشتعال السرطان في جسدي. قد يكون هذا التحذير هو ذاته دافعًا لي. بدا تحذيرًا غبيًّا، يُشبهُ أن يكون على قارورة ماءٍ جملةٌ على شاكلة: «الماءُ سرُّ الحياة»، وكأنَّما اشتريتُ القارورة بدافع آخر غير دافع الحياة! استللتُ من العلبة آخر سيجارةٍ فيها. لا أحسب أنَّ ثمَّة مأزقًا أسوأ من هذا يمكن أن يقع فيه المدخِّن، إذ لا أفظع من أن يبدأ يومَه بضرورة الخروج من المنزل. فكَّرتُ في أنَّ ماسلو كان ينبغي أن يضيف السجائر إلى قاعدة هرمه اللعين، القاعدة التي قرَّرتُ أن أنزوي فيها فلا أبرح خانتها. وحبَّذا لو

تستبدل الشركات القاتلة وعيدها اللعين بتنبيهٍ لطيف: «رجاء؛ تأكَّد من عدد السجائر المتبقِّي في العلبة، كلَّما سحبتَ منها واحدة!». هل لي أن أقاضيهم لإغفالهم وضع جملةٍ مماثلة؟ ذاك أنَّ غياب تفصيلٍ صغيرٍ كهذا قد يقتل كثيرًا من المدخِّنين، إذ يُعرِّضُهم لشتَّى مسبِّبات الحوادث، وإنَّ حالتي لدليلٌ مباشرٌ على صدق فرضيَّتي، فقد يدفع بي هذا النقص المفاجئ إلى الشارع، مُعرِّضًا نفسي لأخطارٍ قد تُجهِز عليَّ بأسرع ممَّا قد تفعل كلُّ أنواع السرطانات، وعلى رأس تلك الأخطار مقابلةُ الناس، ثم تليها حوادث السير، وأيُّ شيءٍ تافهٍ آخر وظيفتُه أن يضفي مزيدًا من المنطقيَّة على فكرة الرحيل.

نهضتُ من مكاني ثانيةً باحثًا عن ملابسي تحت أكوام من قوارير الصودا والماء. لقد مرَّ وقتٌ طويلٌ منذ أن ارتديتُ أيًّا منها، فما الفكرة من تغطية جسدي أصلًا؟ على أيَّة حال، يبدو أنَّها فكرةٌ سخيفةٌ أخرى عليَّ أن أؤمن بها من دون أن أسأل.

بعد جهدٍ مضنٍ انتبهتُ إلى سترتي السوداء متواريةً تحت بنطالٍ أو اثنَيْن. لا يمكنني التأكُّد من ذلك، لكن ربَّما كانت تخشى فكرة الخروج هي الأخرى. ولمَّا كانت جلُّ اختياراتي في الملابس محصورةً بين الأسود والكحليّ، فقد استغلَّت السترة، على الأرجح، قتامةَ اللونَيْن غطاءً تنكَّرت به.

سحبتُ طرف أحد كمَّيْها مُخلِّصًا إيَّاها من كلِّ ما تناثر فوقها. ما إنْ ارتديتها حتى أحسستُ بثقَلِها على ظهري، لفرط ما أمضيتُ من أيَّام عاريًا، وأظنُّها هي أيضًا قد غصَّت امتلاءً بي. أمَّا بنطال الجينز فكان إيجادُه أسهل، إذ فضلًا عن كونه سماويَّ

اللون، فإنَّه يتَّخذ لنفسه مكانًا بارزًا حيث يتمدَّد على أريكة الصالة، ويظلُّ متأهِّبًا ليستقبل زيارة صاحب البناية بين فترةٍ وأخرى.

خرجتُ داسًّا رأسي في القبَّعة الملتصقة بظهر السترة، ونزلتُ سلالم البناية بخطواتٍ خفيفةٍ متسارعة، إلى درجة أنَّ من يراني سيظنُّ بأنَّني في عجلةٍ من أمري، وأنَّني أهرول لألحق بأمرٍ أخشى أن يفوتني. هذه حيلةٌ ناجعة، جدارٌ يقيني كلَّ من تراوده نفسه بالحديث معي أو سؤالي؛ وصفةٌ سحريَّةٌ تنجح دائمًا، رغم أنَّني لم أهتدِ إليها إلَّا بعد أن نزلتُ السلَّم مرَّاتٍ ومرَّات، ورغم أنَّها ليست مضمونة النجاح، إلَّا أنَّ نجاعتها غير مشكوكٍ فيها. حتى إنَّها قد جنَّبتني في مرَّاتٍ كثيرةٍ أقصى ما أخشاه، وهو التقائي بذاك الشيخ المزعج الذي يسكن الشقَّة المقابلة لشقَّتي. هو مزعجٌ لأنَّه يظنّ، على نحوٍ صريحٍ وبيِّن، أنَّ ثمَّة مسؤوليَّةً مُلقاةً على عاتقي تجاهه! ذلكم ما أقرؤه في طريقة صعوده السلالم - وأظنُّ أنَّ طريقتي العَجِلَة في الصعود والنزول مستقاةٌ من طريقته، ليس على سبيل المحاكاة، بل على سبيل المعاكسَة والمناقَضَة - وطريقة حمله أكياسًا تفوق طاقتَه، كأنَّما في الشقَّة أُناسٌ غيره وزوجته العجوز التي لا تكاد تفعل شيئًا. لطالما تباطأ الشيخ منتظرًا أن أحمل معه، أو عنه، حِملًا ممَّا اعتاد أن يُثقل به يدَيْه وجيبه، في كلِّ مرَّةٍ يقفل فيها إلى شقَّته. تراودني الظنون بأنَّه يتعمَّد شراء تلك الأشياء كلِّها، لا لشيءٍ إلَّا ليُحرِّضني على أن أساعده في حمل بعضها، وذلك ممَّا لم أفكِّر فيه ولو للحظة.

صادفته يومًا في البسطة الأولى للسلالم، مقتعدًا أوَّل درجةٍ

بين الطابقَيْن، وبجانبه أنبوبة غازٍ برتقاليَّة اللون، وكان واضحًا من أنفاسه المتسارعة أنَّ الأنبوبة معبَّأة. ابتسمتُ له، ثم أكملتُ الصعود نحو شقَّتي. شعرتُ حينها بعينَيْه تخترقان سترتي السوداء فتحرقان ظهري، ولكن تلك ليست مشكلتي. كان يجدر به أن يستبدل فرنه الغازيَّ بآخر كهربائيّ، أو أن يكتفي بعلب التونة التي صارت تأنف منها قطَّة البناية. تلك حلولٌ سهلةٌ بسيطة، لا تحتاج إلى كلِّ هذا التعقيد والجهد. ثم إنِّي بالكاد أتحمَّل مسؤوليَّة نفسي، منذ أن قرَّرتُ أن أنتقل إلى هنا.

هي ذي الحياة؛ لم نختَر أن نحياها، إنَّما وُلدنا محارِبين، وعلى الجميع أن يتحمَّل فكرة أن يكبر ويمرض ويموت، وألَّا ينتظر تعاطفًا من غيره. إنَّها أشياء متوقَّعةٌ جدًّا، والمتوقَّعُ أكثرَ أن تكون مستعدًّا للنزال. إنَّ الشفقة في حدِّ ذاتها أمرٌ يجدر بالإنسان ألَّا يستثيره في الآخرين. لذلك تراني متصالحًا مع فكرة أن أكبر، فأعجز عن حمل أنبوبة غازٍ إلى شقَّتي، أو كيسٍ ممتلئٍ بعلب التونة أو قناني الماء، لأنَّني لو لم أحملها سأموت جوعًا أو عطشًا، وإن متُّ فإنَّ موتي انطفاءٌ متوقَّع، ولا أنتظر شفقةً من أحدٍ حتى في لحظة موتي.

على غير العادة، لم يكن أحدٌ أسفلَ البناية، بالرَّغم من أنَّ نزولي صادف وقت عودة أغلب سكَّانها من أعمالهم التي يعبدونها والتي لا تُغنيهم أبدًا. حتى القطَّة التي توقَّعتُ أن تلحق بي لم تكن هناك. لا بدَّ أنَّها مستلقيةٌ عند عتبة شقَّةٍ من الشقق، تتَّقي حرارة شمس ظهيرةٍ على هذه الدرجة من الالتهاب، أو ربَّما قرَّرَت أن تستقبلَ ما في أيدي السكَّان من غذاء. ربَّما أناوِلُها في

telegram @soramnqraa

يوم ما سيجارةً حتى أُخرجها من منطقة الهناء التي أطالت فيها المكوث، وتبدأ في النزول كلَّ يومَيْن قاصدةً الجهة المقابلة حيث الدكَّان.

ما إن دلفتُ إلى الشقَّة راجعًا حتى اجتاحني ارتياحٌ كبير، فخلعتُ عن ظهري السترة كما يخلع جنديٌّ عن بدنِه ترسَه الثقيل. لفحَ هواءٌ باردٌ مندفعٌ من المكيِّف جسدي المتعرِّق جرَّاء سخونة الجوِّ ورطوبته، ثم سرحتُ أفكِّر في البون الكبير بين المكيِّف والمنبِّه، وكيف يمكنُ للإنسان أن يكون متناقضًا حتى في اختراعاته إلى هذه الدرجة! استغللتُ نزولي هذا في أن تبضَّعتُ لأسبوعٍ آخر، ولكنَّها أكياسٌ متواضعةُ العدد تكفي لأسبوعٍ واحدٍ فقط، وأستطيع حملها من دون أن أستجدي مساعدة أحدٍ من الجيران. على المرء دائمًا ألَّا يُبالغ في تقدير احتياجاته قياسًا إلى قدرته، حتى لا يغصَّ بها.

وضعتُ كلَّ المعلَّبات على طاولةٍ صغيرةٍ في منتصف الغرفة، بحيث تكون قريبةً كفايةً في حال قرَّر جسدي النحيل أنَّه بحاجةٍ إلى مزيدٍ من الغذاء ليحافظ على نشاطه. أحيانًا، عندما أنظر إليه في المرآة، أجده يُبالِغ في السعرات الحراريَّة التي يحتاجها. لا بدَّ أنَّ جسدًا كهذا يستطيع أن يقوم بكلِّ ما أحتاجه، خلال ما بقي من عمري، بأقلِّ ممَّا تحويه هذه الأكياس. فكَّرتُ كيف لجسدٍ أن يكون عالةً على نفسه!

تناولتُ قارورة صودا باردة، وأنصتُّ لخطوات العائدين من أعمالهم. سيستمرُّ هذا الضجيج حولي حتى نهاية اليوم. شغَّلتُ أغنية «آم فيلينغ غود» بصوت نينا سيمون، ثم رفعتُ من صوت

telegram @soramnqraa

الشاشة الذكيَّة بحيث لا أسمعُ غيرَها.

أسبوعان كاملان بلا عمل. معظمُ ما ادَّخرته من عملي السابق أحرقتْه السجائر والسعرات الحراريَّة. ولكن، هل أنا ملزمٌ بأن أحترق كي أوفِّرَ شيئًا من مال؟! سمعتُ في أحد البرامج شرحًا لمصطلحٍ أضحكني جدًّا. كان ضيف البرنامج يتحدَّث عمَّا أسماه «الاحتراق الوظيفيّ»، واستطرد شارحًا كيف أنَّ الموظَّف يدخل في حالةٍ من الإجهاد البدنيِّ والنفسيِّ تؤدِّي به إلى فقدان الرغبة في العمل. بالقدر الذي اندهشتُ به من قدرة البشر على ابتداع مصطلحاتٍ جديدة، تعجَّبتُ كيف لهذا الطبيب النفسيِّ المتحذلق، أو الباحث المتخصِّص في مجالٍ من تلك المجالات المتناسلة التي تنتهي جميعًا بكلمة «لوجيا»؛ كيف له أن يرى أنَّ من غير الطبيعيِّ أن يحترق الإنسان وظيفيًّا؟! وددتُ حينها أن أتَّصل بالبرنامج، لأقول للمتحذلق الطبيب الباحث المختصِّ في مجال من مجالات «اللّوجيا» إنَّ الاحتراق الوظيفيَّ عكس ما قال تمامًا؛ إنَّ الاحتراق الوظيفيَّ هو عندما ينكبُّ الإنسان على العمل انكبابًا، ويفرط في التعلُّق به وحبِّه، ويرغب في مواصلته، على نحو ما يفعل هؤلاء العائدون إلى البناية قبل غروب شمس كلِّ يوم، بساعةٍ أو ساعتَيْن، ليقبِّلوا أطفالهم، ثم يناموا استعدادًا ليوم عملٍ آخر. هذا هو الاحتراق الوظيفيُّ بعَيْنه، أو قُل إن شئتَ إنَّه تفحُّمٌ وظيفيّ. لقد أحرقتهم وظائفهم، واستحالوا بعد احتراقهم دُمى متفحِّمةً تتحرَّك بلا وعيٍ نحو عجلة الهامستر، لتركض وكأنَّ الحياة لا يوجد بها شيءٌ آخر.

أظنُّ أنَّني فطنتُ إلى هذا جيِّدًا قبل أن أصبح دميةً متفحِّمة،

وإن كنت ما أزال أحمل آثار حروق. لقد اقترح الضيف كذلك حلولًا لهذا الاحتراق، ولكنَّني لم أصغِ إليها فهي لا تعنيني الآن. ولأنَّني جيِّدٌ في توقُّع الأشياء، أقول إنَّه لن يذكر بالتأكيد الحلَّ الأفضل للمتفحِّمين: الخروج من فوَّهة البركان. وأتوقَّع في المقابل أنَّه طرحَ فكرة فترة إجازة، يعود منها الموظَّف وقد تخلَّص من كلِّ أسباب الاحتراق. ثم تحدَّثَ عن ضرورة العمل، وبدأ يهذي كلامًا بنبرةٍ تهدهدُ المستمع، وتُسلِّمه إلى مملكة النوم.

إنَّ ضروريَّة الأشياءِ أمرٌ مقزِّزٌ بالنسبة إليّ، ومقزِّزةٌ أكثر قدرةُ الإنسان على حشو هذا العالم بالمزيد من الضروريَّات يومًا بعد يوم، وهو ما يتعارض مع طبيعته، أو طبيعتي أنا على أقلِّ تقدير. لوهلة، ارتسم في رأسي تقسيمٌ للضروريَّات حسب ضرورةِ كلِّ ضرورة، وكان المال أكثر الضرورات التي لم يستطع الإنسان أن يستغني عنها، بالرَّغم من تطويره أشكالًا كثيرةً من أنظمة التبادل. حتى إنَّه ليُخيَّلُ إليَّ أنَّ العالم لن يستطيع أن يتجاوز كارل ماركس وآدم سميث، وسنبقى ندور في فلك المقايضة حتى ينتهي وننتهي معه. ففي المرَّة الأخيرة التي فكَّر فيها أحدهم في هذا الموضوع، حوَّل العالم من فكرة المقايضة بالأشياء بشكلٍ مباشر، إلى مقايضة وقت الإنسان وخصوصيَّته بالمال الذي يقايض به احتياجاته الرئيسة. يا لها من فكرةٍ سخيفة، تستحقُّ أن تكون ضمن موسوعة الأرقام القياسيَّة كأسخف فكرةٍ في أسخف موسوعة!

فتحتُ حاسوبي المحمول، وسجَّلتُ في أحد المواقع الشهيرة للعمل المستقلّ. كنت قد فكَّرتُ كثيرًا قبل ذلك في نوع العمل الذي أستطيع أن أعملهُ من على أريكتي هذه، ولكن ما الذي

يمكنني بيعه؟ لا شيء لديَّ يستحقُّ أن أبيعه. كلُّ ما لديَّ هو دافعٌ وحيد: أن أحافظ على تدفُّقٍ كافٍ من النيكوتين في دمي، والقليل من الغلوكوز، والكثير الكثير من الاعتزال، وأظنُّ أنَّ البشر في ظلِّ دوائرهم المتداخلة بحاجةٍ إلى أن يشتروا شيئًا من العزلة. ماذا لو أمكنني بيعها؟ لعلَّها تصير مُنتجًا مُعلَّبًا حين تفطن دواليب رأس المال لها، وبالتأكيد ستبدأ الشركات المنتجة لعُلب العزلة بمزاحمتي وإخراجي من السوق. أتمنَّى على الأقلِّ ألَّا يوضع تحذيرٌ على علبهم من نوع «الإفراط في العزلة قد يؤدِّي إلى الإصابة بالسرطان وأمراض القلب والرئتَيْن، ويؤثِّر على الخصوبة». ولكن هُناك من سيغريه هذا التحذير لشراء المزيد والمزيد من العزلة. أظنُّ أنَّ العالم في شكله الحاليِّ يحتاج مُنتجًا مماثلًا.

سأقبل بأيِّ شكلٍ من أشكال العمل، شرط ألَّا أخرج من التسعين مترًا مربَّعًا هذه، وسأرتضي بأيَّة صيغةٍ تُمكِّنني من ألَّا أقابل أحدًا، كائنًا من كان. ثم إنَّ هناك تفاصيل خفيَّةً أخرى لا تقلُّ أهمِّيَّة، من قبيل أن لا أحتاج أن أصرف شيئًا لأبدأه. كلُّ هذا لم أكن متأكِّدًا من توافره، ولكن ما كنت متأكِّدًا منه أنَّني لستُ مستعدًّا للعودة إلى عملي السابق، أو أيِّ عملٍ قد يضطرُّني إلى مُقابلة أشخاصٍ بلهاء والتملُّق لهم. لماذا أصبح التملُّق ضرورة؟ هذا شيءٌ ضروريٌّ آخر اكتشف «الأذكياء» فجأةً أنَّه لا بدَّ منه حتى يسير كلُّ شيءٍ بهدوء.

على موقع يوتيوب كثيرٌ من الدروس التي أقضي في مشاهدتها وقتًا لا بأس به، محاولًا البحث عن شيءٍ لا يأخذ وقتًا

وجهدًا كبيرَيْن، ويستطيعُ أن يوفِّرَ لي سجائر وصودا وإيجار شقَّة التسعين مترًا مربَّعًا هذه، الشقَّة التي يأنف مالكها نفسه من أن يسكن فيها، ولا يتحرَّج من أن يطلب منِّي أجرتها. يلّا. إنَّه أشبه بشيطانٍ على هيئة بَشر، أو بعبارةٍ دقيقةٍ هو شيطانٌ واضحٌ وصريح، وهذا الفرق بين الاثنَيْن. إنَّه من النوع الذي تتوقَّع انفجاره في أيَّة لحظةٍ لكثرة ما يكتنزه جسدهُ من الدهون، ولكن من المنطقيِّ جدًّا أن يكون له كرشٌ كهذه بسبب ما يقتطعهُ منِّي في أوَّل كلِّ شهر. تساءلتُ مرَّةً ماذا لو تأخَّرتُ يومًا واحدًا عن دفع الإيجار؟ هل ستنفجرُ كرة الدهون تلك؟!

بعد أن استغرقتُ وقتًا أكثر ممَّا توقَّعت، وجدتُ أنَّ بالإمكان أن أشتري صورًا جاهزةً من مواقع بيع الصور الكرتونيَّة، أو أن أُصمِّم بنفسي عملًا أصيلًا، وهو الخيار الأسلم، لأنَّ الصور الجاهزة تتشابه عادة، ويَلجأُ إليها أغلب من يسلكون هذه الطريق. وبعد أن أنتهي من التصميم، أرفعه على أيَّة منصَّةٍ من منصَّات التجارة الإلكترونيَّة العالميَّة.

ليس عليَّ سوى أن أرفع صورةً على إحدى المنصَّات، صورةً لا غير، وهم يتكفَّلون بمراحل سلسلة الإمداد كلِّها، من توفير الموادِّ الخام والطباعة عليها إلى شحنها. يجنِّبونني عناء أن أبذل أيَّ جهدٍ آخر غير التصميم والرفع، وذلك كلُّه مقابل نسبةٍ معلومةٍ مسبقًا من سعر البيع الإجماليّ، ويقومون بتصفية مستحقَّاتي أسبوعيًّا. فكَّرتُ وأنا أسحبُ من سيجارتي نَفَسًا طويلًا كم أنَّ من الجيِّد أنَّنا لم نتجاوز آدم سميث بعد. لقد كنت متسرِّعًا في الحكم، وها أنا الآن أعي أنَّ الاقتصاد التشاركيَّ هو نتيجةٌ

مباشرةٌ للرأسماليَّة. لا بدَّ أنَّ كارل ماركس يبكي في قبره الآن: ها هي الرأسماليَّة تبتلع فكرته، كما ابتلعت كلَّ شيء.

«إنَّ المال الذي ستجنيه يعتمد على المناسبات في الغالب، لذا عليكَ أن تتَّبع الأعياد وإجازة رأس السنة ويوم العُزَّاب والمتزوِّجين والجمعة السوداء. وتذكَّر أن تتميَّز عن البقيَّة بالمنتج الذي تعرضه، حتى يكون لديك وصولٌ أكبر للعملاء». بهذه الكلمات انتهى الدرس اليوتيوبيّ.

يبدو لي أنَّ هناك فرصةً سانحةً تلوح أمامي لازدراء الناس. هناك عددٌ لا بأس به من الأعياد والأيَّام المهمَّة التي يوهمون أنفسهم فيها بالسعادة، أو لعلَّها جاءت من رغبةٍ ملحَّةٍ في أخذ إجازةٍ من «فوَّهة البركان» حتى تبرد مؤخِّراتهم المحترقة، ولكنَّها مغلَّفةٌ باهتمامهم بالأب أو الأمِّ أو الحبّ. لا يهمُّني هذا كلُّه بحقّ. الأهمُّ في نظري أنَّهم سيشترون سعادتهم منِّي. أخيرًا أصبح للأشياء السخيفة فائدةً بالنسبة إليّ. يا لها من طريقةٍ رائعةٍ للسخرية من حشود البشر؛ أن أبيعهم أشياء يكادون يقدِّسونها، بينما لا أرى فيها أنا إلَّا شيئًا يستحقُّ الاستخفاف! أصبح من السهل جدًّا توقُّع ما الذي يحبُّه الآخرون، فتمهَّدت الطريق أمام تسليع كلِّ شيء.

انكببتُ على البحث عن مناسبةٍ في هذا الشهر من السنة، بعد أن اخترتُ أخيرًا أكثر المنصَّات شهرة. لا شيء يُذكر، فقد وجدتُ أثناء بحثي في موقع الأمم المتَّحدة صفحةً كاملةً تحوي روزنامةً تُبيِّن التواريخ، والمناسبة التي تحلُّ في كلِّ يوم من أيَّام السنة. يُصادف اليومُ اليومَ العالميَّ لسمك التونة! بالرَّغم من وعيي بأنَّ

telegram @soramnqraa

لدى العالم الكثير من الأشياء الغبيَّة التي لا يخجل من أن يصدح بها في كلِّ اتِّجاه، إلَّا أنَّ فكرة منحِ سمك التونة يومًا عالميًّا هي أغبى ما صادفني منذ زمنٍ طويل، وأظنُّ أنَّ قطَّة البناية تشاركني رأيي هذا. يبدو أنَّ الأمم المتَّحدة بدأت تتخلَّى في احتشامٍ وحذرٍ عن مسؤوليَّاتها تجاه مصالح الدول الكبرى على حسابٍ الدول النامية، وعلى حساب الدول التي لا يُراد لها أن تنمو أبدًا، وأخذت تهتمُّ بسمك التونة. لعلَّها مهمَّةٌ تليق بها على أيَّة حال.

على رأس صفحة الروزنامة جملةٌ تقول إنَّ هذه الأيَّام هي المناسبات التي تحتفي بها الأمم المتَّحدة في ثنايا العام، وتُضاف إليها دوريًّا المزيد من الأيَّام. بالطبع سيكون هناك المزيد من الأيَّام لكي يحتفلوا بها. لديَّ أنا شخصيًّا أيَّامٌ أريد أن أُضيفها إلى هذه القائمة، وسيكون لها بالغ الأثر: يومٌ للملاعين، ويومٌ للخبثاء الذين يجعلون العالم أصعب في كلِّ يومٍ من اليوم الذي سبقه.

بعد أن تفحَّصتُ الروزنامة، لم أجد شيئًا يستحقُّ أن أعمل عليه، أو ربَّما خجلتُ من العمل على الأيَّام التي وجدتها، إذ كانت كلُّها على شاكلة يوم سمك التونة. وفي انتظار أن يأتي الزمن الذي يشتري فيه الإنسان هدايا لسمكة التونة في يومها العالميّ، عليَّ أن أبحث عن شيءٍ أكثر عموميَّة، وتلك مشكلةٌ بسيطةٌ أخرى لم تستطع الأمم المتَّحدة أن تحلَّها.

أطبقتُ شاشة الحاسوب. كان الوقت قد تأخَّر، ولم يعد يُسمَع للآخرين حسيس. أستطيع أن أتخلَّى عن ساعتي في هذه البناية، فلكلِّ وقتٍ صوته: صوت دشِّ الماء يُشير إلى الخامسة صباحًا، أصوات اصطكاك الملاعق بالصحون إلى السادسة، ثم

بعدها بربع ساعةٍ يشتدُّ ضجيج محرِّكات السيَّارات، وهكذا. إلَّا أنَّ الأهمِّيَّة الوحيدة للوقت لا تُلحُّ عليَّ إلَّا حين يتعيَّن عليَّ النزول لشراء شيءٍ ما، فأيُّ خطأ في تحديد الوقت قد يضطرُّني إلى الدخول في محادثةٍ مع الشيخ أو غيره، لذا عليَّ أن أكون دقيقًا جدًّا كضابطٍ موقَّتٍ لقنبلة؛ أيُّ تأخيرٍ أو تقديمٍ قد يجعل من الأمور أسوأ، أسوأ إلى درجة أن أصير ممسحةً لهراء الآخرين.

الوقت مناسبٌ لسيجارةٍ أخرى، وهذا أفضل ما يكافئ الإنسان نفسه به احتفاءً بساعة الهدوء هذه. عشرون سيجارةً في اليوم هو أقلُّ معدَّل استهلاكٍ وصلتُ إليه. لعلَّ السجائر صُنِعَت لأولئك الذين لا يأبهون بالموت. الناس جميعًا لا يأبهون بالموت حتى يمرَّ بجانبهم، وعندما يفعل فإنَّهم يُذعَرون لوهلةٍ فقط، قبل أن يعودوا إلى سلوانهم. أمَّا أنا فإنِّي بشراهتي هذه أستدعيه، فلا فرق بين الرصاصة والسيجارة؛ كلاهما قاتل، إلَّا أنَّ السيجارة أبطأ، وهذا مُحبِط. أخذتُ نَفَسًا عميقًا، وكأنَّها السيجارة الأولى لمدمنٍ منتكس. أنظرُ من النافذة إلى شارعٍ هادئٍ جدًّا. تصبحُ الأشياء جميلةً عندما تكون هادئة. العلاقة بين الجمال والهدوء علاقةٌ طرديَّةٌ في نظري، بل وحتى الذكاء؛ الأشياء الذكيَّة لا تُحدِث جلبة. الأماكن الصاخبة بشعةٌ وطارِدَةٌ ويكرهها الأذكياء. وحدهم الأغبياء يجيدون الصراخ. كان المنظر هادئًا، حتى انتبهتُ إلى عبور القطَّة الشارع إلى الدكَّان الوحيد فيه، والذي يفتح حتى ما بعد منتصف الليل بساعتَيْن. لعلَّها قرَّرت أخيرًا، بعد محاكاتها الطويلة للبشر، أن تبتاعَ علبة سجائر!

2

أقوم عن مرتبتي الممدَّدة على الأرضِ نحو السماء، متتبِّعًا صوت آلة الخياطة، حيثُ أمِّي. أنغمسُ كثيرًا في صدرها لدقائق قليلة، ثم أسحبُ حقيبتي المدرسيَّة المُعَلَّقة بمقبضها أعلى الباب، وأشرعُ في حلِّ واجباتي المدرسيَّة مستلقيًا بجانبها، بينما هي ترفو أطراف قماشٍ أبيض، وهذا ممَّا كانت تُجيده وتحبُّه. كانت أمِّي بالكاد تُجيد قراءة الأحرف، بعض الأحرف ليس أكثر، ولكن إن استثنينا الحروف التي لا تُجيد قراءتها، فإنَّها كانت تعرف كلَّ شيء.

مساء، بينما تخلط مع الماء مسحوقًا لا أعرف ما هو على وجه الدقَّة، ذلك لأنَّ لهُ رائحةً زهريَّةً نفَّاذةً ملأت الغرفة بأكملها، ولو أنِّي قد شممتها من قبل لاستثارت فيَّ فضول معرفة مصدرها؛ حاولتُ أن أضع يدي في الإناء الذي كانت تخلطُ فيه، ولكنَّها ردعت يدي عنه، ثم أخبرتني بأنَّها تعجن مسحوق أوراق السدر

لأنَّ رائحته تشبهُ رائحة الموت، وهذا الخليط لا ينبغي أن يلطِّخه أحدٌ من أهل الدنيا إلَّا بعد إشارةٍ تُلهمه بفعل ذلك.

لم يكن في ذهني وقتها إلَّا فكرةٌ وحيدة، وهي أنِّي سَأنامُ منتظرًا تلك الإشارة. عليَّ أن أكون نبيهًا ومستعدًّا، فلا شيء أكثر متعةً عند طفلٍ مثلي من أن يلعب ويعجن.

للبيتِ رائحةُ موتٍ آت.

في الصباح، بدا كلُّ شيءٍ صريحًا في غرابته. لم يكن ثمَّة شيءٌ في موضعه، حتى كوب الحليب الذي اعتدتُ شربه تحت نظرةٍ صارمةٍ لم يكن هناك، وأظنُّها المرَّة الأولى التي ألبسُ فيها ملابسي بمفردي. كانت الحياة أسهل قبل ذلك اليوم، قبل اليومُ الذي أدركتُ فيه الصعوبة؛ ففي الأيَّام السابقة كانت أمِّي تحملني من مضجعي وأنا لم أنتبه بعد من نومي، فأدخل من دفءٍ إلى دفء، ثم تُرخي يدها التي تسند قدمَيَّ وتنزلها، وجذعي ما زال محلِّقًا في يدها الأخرى. ثم بقرصةٍ خفيفةٍ على خدِّي تتأكَّد من أنَّ بإمكاني الوقوف متَّزنًا، وبعد ذلك تدفعني نحو الحمَّام. وفي كلِّ مرَّةٍ كانت تقف ممسكةً بابه ـ وهنا كانت تنبِّهني بطرقاتٍ خفيفةٍ إذا ما أحسَّت بأنَّ النعاس قد غلبني ـ إلى أن أخرج. بعدها كنتُ أستغلُّ تلك الدقائق المتسارعة، فأرجعُ إلى مرتبتي الممدَّدة لأستسلم لنومةٍ خفيفة. لم تكن أمِّي تتذمَّر من هذا الفعل أبدًا، بل إنَّ شعورًا جميلًا كنت أحسُّ به من قِبلها، من قبيل أنَّها تتواطأ معي. ببطءٍ شديدٍ وحركةٍ خفيفةٍ أشبه بهدهدةٍ تُلبسني، ثم توقظني وأنا غير نائم تمامًا: «هيَّا، أصبحتَ جاهزًا! في الليل عليكَ أن تنام باكرًا حتى لا يتكرَّر هذا». وفي كلِّ مرَّةٍ كان يتكرَّر الأمر ذاته،

telegram @soramnqraa

وكأنَّني كنتُ أختبر اهتمامها بي، وكأنَّها تختبر أمومتها لي.

في المدرسة، كنت أركض، وأركض وأركض كمن نام الليل كلَّه. أمَّا اليوم، فكففتُ عن الركض.

للبيت رائحة موتٍ آت. يقول لي أبي إنَّ أمِّي متعبةٌ قليلًا، ولا يمكنها القيام بشيءٍ اليوم. إنَّها محتاجةٌ إلى الراحة.

***

أُحدِّق في دفتري الفارغ بعينَيْن مرتبكتَيْن. يداي شبه متصلِّبتَيْن. في الكتاب قطعةُ نثرٍ محوطةٌ باللون الأحمر، ومكتوبٌ أعلى الصفحة «واجب». لا أدري كم مرَّ من الوقت وأنا على حالي هذه، ولكن ما أنا متأكِّدٌ منه هو أنَّ كارثةً أكبر منِّي أواجهها لأوَّل مرَّة، وأواجهها وحدي. استجمعتُ قواي، تلك التي يمكن لطفلٍ في الثامنة من عمره أن يستجمعها، ثم نسختُ الحرف الأوَّل من العنوان وانهرتُ باكيًا.

إنَّها المرَّة الأولى التي تغيب فيها أمِّي عن الجوار. لا أدري على وجه الدقَّة أين هي، ولكنَّ صمتًا واضحًا لآلة الخياطة الجاثية فوق المنضدة يمكنه أن يقول الكثير. وما أعرفه حقًّا، أنا وآلة الخياطة، هو أنَّ أمرًا ما قد حدث. ظللتُ أتساءل إن أصابَ أمِّي مكروه، فللبيت رائحة موتٍ نفَّاذة! وإن كان قد حدث مكروهٌ فعلًا، فكيف لصغيرٍ مثلي أن يعيش؟ لقد كنت أعلم حقيقةً أنَّ الأطفالَ لا يمكنهم العيش بلا أمَّهاتهم، ولذلك ما يلبثون أن يلحقوا بهنّ، على هذا النحو أو ذاك، ثم أدركتُ لاحقًا أنَّ الكبار يفعلون ذلك أيضًا.

telegram @soramnqraa

انتظرتُ طويلًا عودة أمِّي، فهي دائمًا ما تعود. وجودها هنا فقط سيجعل الأمر سهلًا. أذكرُ اللحظة التي أدركتُ فيها أنَّها أمِّي، حدث ذلك قبل عامٍ أو عامَيْن. كنتُ أركض هربًا من أخي الذي يكبرني بعامَيْن، بسبب شقاوةٍ اقترفتُها بحقِّه، لم أعُد أدري ما هي، إذ كان يلاحقني بحرقة مظلومٍ لن يشفيَ غليلَه سوى أن يأخذ أكثر من حقِّه. حملني الخوفُ رأسًا إلى غرفة أمِّي، فصادفتُها خارجةً منها. وفي غمرة لهاثي الأعمى اصطدمتْ جبهتي بركبتها، فارتددتُ بخفَّة طفلٍ ساقطًا على الأرض. نزلتْ إليّ، وبكلِّ حنوٍّ فركت براحة يدها مكان الصدمة، ثم ضمَّتني إلى صدرها فغمرني شعورٌ دافئٌ كفيلٌ بتخليص العالم أجمع من أوجاعه. لحقني أخي، لكنَّ خوفي كان قد تبدَّد، فقد تحصَّنتُ بذراعَي أمِّي. توقَّفَ أمامنا لبرهة، وقد أدرك ما أصابني قُبَيْل وصوله بلحظات، فقال: «هذه المرَّة أخذ الله حقِّي منك، أمَّا في المرَّة القادمة فسآخذه بيدي، وإن فعل». حينها فقط أدركتُ أنَّ هذه أمِّي، فمَن غير الأمَّهات ينتصر لأبنائهنّ، ظَلَمةً كانوا أو مظلومين؟

انتظرتُ طويلًا، وفكَّرتُ في أنَّني سأنام باكرًا هذه المرَّة، فاتحًا دفتري الفارغ بجانبي حتى تكمل هي النسخ عنِّي بخطٍّ متعرِّجٍ لا يشكُّ من يراه في أنَّ صاحبه ليس تلميذًا في الصفِّ الثاني؛ فقد تمرَّنتْ على ذلك، إذ دائمًا ما تفعله قبيل الفجر، وإن كانت بالكاد تُجيد بعض الأحرف ليس أكثر، ولكنَّها تُجيد كلَّ ما عدا ذلك.

* * *

اكتظَّ البيتُ بالناس، ونسيتُ أن أبكي. اكتظَّ العالم بالناس، ونسيتُ أن أبكي.

كنت مدهوشًا من أنَّ بإمكان بيتنا هذا، بل شقَّتنا هذه، أن تستوعب ذاك الكمَّ من البشر. نساءٌ يجزعن ويبكين، وأنا لم يحدث أن رأيتهنَّ قبل هذا اليوم. رجالٌ يتشدَّقون بفضائل أمِّي بوجوهٍ غشاها من الحزن ما غشاها، وكأنَّهم يعرفونها أكثر منِّي. تسلَّلَ إليَّ شعورٌ بالغيرة من كلِّ هؤلاء، فكيف بإمكان شخصٍ ليس لصيقًا بها مثلي أن يحزن عليها أكثر منِّي؟ ألستُ أجدَرَهم بكلِّ هذا الحزن؟

بعد أن فرغ البيت من الغرباء، ظلَّ أبي قاعدًا في صدر المجلس يحدِّق في الفضاء، وكأنَّه الآن فقط صار يستطيع التذكُّر. ركضتُ بثوبٍ طال عنه سرواله التحتيُّ الأبيض ـ كانت أمِّي تنتبه دائمًا إلى طول السروال التحتيّ، فتطوي طرَفَيْه إلى الأعلى طيَّتَيْن، حتى يصير أقصر من الثوب ـ وقعدتُ بجانبه منتظرًا أن ينتبه لي. ولكنَّه أبطأ عن الانتباه إليّ، أبطأ قليلًا فقط، حتى إنَّني ما كدت ألاحظ ذلك حتى مال على صدغي بفمه الغائص خلف شنبٍ كثيف، وسألني سؤاله الذي اعتاد أن يهمس إليَّ به، عاضًّا أذني في كلِّ مرَّةٍ آتي إليه: «تعلم أنَّني أحبُّكَ كثيرًا أيُّها الشقيّ، أليس كذلك؟». أجبته بخجلٍ طفوليٍّ ينجلي عن ابتسامة، توهمُ بأنَّها المرَّة الأولى التي أسمع فيها سؤاله الدافئ ذاك: «نعم، أعلم ذلك... وأنا أيضًا أحبُّك». وبعد برهةٍ انتبهت إلى أنَّه عاد للتحديق في الفراغ كأنَّني غير موجود، فقطعتُ تأمُّله بسؤال: «أبي، من هم أولئك الذين كانوا هُنا؟». التفت نحوي التفاتةً

telegram @soramnqraa

وقورًا، ثم أجاب: «إنَّهم أُناسٌ يتملَّقون إلى الأحياء، متَّخذين الأموات مطيَّة. وهم على أوجهٍ كثيرة، فمنهم من يظهرون أنَّهم يشعرون بما تشعر، وأنا لا أدري لماذا يجب عليهم أن يظهروا لي شيئًا غبيًّا كهذا؛ وأسوأ منهم أولئك الذين أتوا كي يُظهروا لغيرهم مدى شهامتهم، مدَّعين أنَّهم لا يتخلُّون عن أهل الميِّت في هذا الظرف الصعب؛ وهناك قسمٌ أخيرٌ يُظهِر الحزنَ والتعاطُف، ويُضمِر السعي إلى نيل قُربٍ أو مصلحة، وهؤلاء شياطين كَمُلَت صورتهم، ولكنَّهم م** أستغفر الله... كلُّهم قد يُطرَدون من رحمة الله». أدارَ أبي وجهه إلى المنتصف تمامًا كما كان، ثم تمتم بوقار: «وحدهم الذين نأتمنُ صدقهم يمكننا البكاء أمامهم، واليوم لم يبكِ منَّا أحد».

الآنَ فهمتُ من هم هؤلاء، وكنت أريد أن أسأل عن أولئك الذين بكوا أكثر منِّي، وحزنوا أكثر منِّي، ولكنَّني عرفتُ مباشرةً أنَّهم وجهٌ شيطانيٌّ آخر نسي أبي ذِكره، ليس لأنَّه لا يعرفه، وإنَّما لأنَّ أبي دائمًا ما يترفَّعُ عن ذكر الدنيء من الأشياء، تلك الأشياء التي لا تُذكَر إلَّا مقرونةً بالشتم.

* * *

في المدرسةِ صرخَ طالبٌ لحظة خروج الجميع من المدرسة، عند البوَّابة تمامًا، بصوتٍ جهوريّ، يشكُّ سامعه في أنَّه صادرٌ عن طفل: «انظروا إلى ثوبِه، إنَّه متَّسخ! ما يزال يحمل البقعة نفسها منذ أسبوع».

نظر إليَّ الجميع، ولم يعلِّق أحدٌ بكلمة، لكنَّ تجنُّبهم إيَّاي

بعد ذلك كان أبلغ من كلِّ الكلمات. وكانت تلك المرَّة الأولى التي أعي فيها تأثير الدومينو، أقصد أنَّ سقوط الحجر الأوَّل يستتبع بالضرورة أن يتداعى خلفه كلُّ شيء. وهي المرَّة الأولى كذلك التي أجدني فيها أعزلَ وحيدًا أواجه معركة، وربَّما هي المرَّة الأولى كذلك التي انتبهتُ فيها إلى أنَّ الحياة لا تكترث لجاهزيَّتك، فهي تتوقَّع منك أن تكون جاهزًا ما إن تُطلَّ برأسِك إلى الوجود.

3

منذ يوم التونة وأنا أحاولُ بيع أرديةٍ عُلويَّة، إلَّا أنَّ فكرةً واحدةً لم تكن مقنعةً بما يكفي. سمعتُ في أكثر من درسٍ أنَّ البشر هناك يحبُّون القطط والكلاب، لذا عليكَ أن تعمل على أيِّ تصميم له علاقةٌ بهذه الكائنات. كنتُ قد جرَّبتُ أن أضع تصميمًا لكلبٍ يأكل المثلَّجات واضعًا نظَّارةً شمسيَّة، في محاولةٍ لاقتناص موسم الصيف لأولئك الذين يفرحون به، ويقضون إجازاتهم في غِماره. لا يدرك هؤلاء البشر معنى الاحتراق الوظيفيّ، وإلَّا لما التجأوا عنه إلى أسوأ فصول السنة. ولكنَّ جزءًا آخر في دواخلهم يحترق حريقًا غالبًا ما تسبَّب به بشرٌ غيرهم، لذا فإنَّ استئناس الكلاب أهون وأدفأ بالنسبة إليهم.

قضيتُ أكثر من عشرة أيَّام وأنا أُفكِّر في تصميمٍ آخر غير الكلاب والقطط. لقد كانت طفولتي مليئةً بها على نحوٍ سيِّئٍ للغاية. أذكر أنَّ جارنا كان يملك كلبًا ـ وهنا سأكتفي بكلمة

كلب، فهي كفيلةٌ بأن تصف ما أعنيه ـ ما إن أخرج من باب البناية حتى يقف وقفة استعداد، ثم ينتظرني بهيئته تلك حتى أتجاوز نقطةً معيَّنةً كان يعرفها جيِّدًا، بينما لم تُتَح لي فرصة تحديدها لفرط ما كان ينتابني من فزعٍ في كلِّ مرَّة. لم يكن مُرَاد ذاك الكلب عضِّي ـ هذا ما عرفتُه بعدَ سنوات ـ بل كان يستمتعُ بإرهابي، وإلَّا ما الذي يُفسِّر احتفاظَه بمسافةٍ كافيةٍ لتُبقيني مذعورًا وتُبقيه مستمتعًا؟ وهذا الأمر، بالمناسبة، هو أحد التقاطعات الكثيرة بين الكلاب خاصَّةً والبشر عامَّة، لذا تراني أختار جيِّدًا من أشتمه بـ: «يا كلب!»، وأشعر بالحنق كلَّما فكَّرتُ في أنَّ الاعتياد على استعمال هذه الكلمة جرَّدها من معناها العميق، ودفع بها إلى النقيض تمامًا، فصار أكثر من يستعملُها لوصفِكَ هم أوثق الناس علاقةً بك.

في عملي السابق، كان موظَّف المحاسبة إنسانًا اجتماعيًّا جدًّا، ولديَّ تبريرٌ نفسيٌّ لذلك؛ فهو أعلى الموظَّفين أجرًا، ويتقاضى بَدَلاتٍ يُخيَّل إليَّ أنَّها تتجاوز الأرقام التي يعملُ عليها. كان المحاسب الاجتماعيُّ لا يكفُّ عن مناداة من تغيَّب عن العمل، سواء لإجازةٍ أو مرض، ثم عاد، بـ «وينك يا كلب؟ اشتقنا لك!!». لن أُبالغ لو قلتُ إنَّ هذا كان السبب الأكثر منطقيَّةً لكي لا يتغيَّب أيُّ موظَّفٍ عن عمله، والأسلم له من ذلك كلِّه أن يستقيل. ولكن يتبادر إلى ذهني سؤالٌ أخافه: ماذا لو التقيتُ المحاسب في مكانٍ ما خارج العمل، وصرخ «لقد اشتقنا لك أيُّها الكلب»؟

فكَّرت في أن يكون التصميم أشدَّ عُمقًا، فلا يجدر بي

النزول إلى مستوى ما يحبُّه الناس، بل أن أرفعَهم إلى مرتبةٍ ما أحبُّه. غير أنَّني هنا أفكِّر بعقلي لا بجيبي، وعلى المرء أن يُفكِّر بجيبه في أحيانٍ كثيرة، بل غالبًا، حتى إنَّني لا أرى خجلًا في أن أقول: دائمًا. فتحتُ حاسوبي المحمول بابتسامةٍ ساخرة، إذ تذكَّرتُ كيف أنَّ ذيل ذكر الطاووس كاد أن ينسف نظريَّة الانتقاء الطبيعيِّ لداروين، تمامًا كما يكاد مالك البناية، كرةُ الشحم، ينسفُ ميزانيَّتي الشهريَّة عندما يأتي كلَّ شهرَيْن أو ثلاثة ليُبلغني بأنَّه مضطرٌّ إلى أن يرفع مبلغ الإيجار بسبب ارتفاع تكاليف صيانة المبنى، وأنَّ هذا هو الحلُّ الوحيد أمامه، بينما هو يريد في الحقيقة أن يُحافظ على ذيله الطاووسيّ، إذ لديه من السيَّارات الفارهة والبنايات ما لا أظنُّه هو نفسه يعرف عددها، ويلبس الكثير من الماركات التي «قد» تبرِّر إمكانيَّة أن تقبل به امرأةٌ ما، مع أنَّني حتى هذه اللحظة لم أجد مبرِّرًا حقيقيًّا، فوحدها كرشه تستطيع أن تدحض فكرة الانتقاء الجنسيِّ التي تقول في قسمها الأوَّل إنَّ الذكر الأقوى هو من يحصل على فرصٍ أكثر للتكاثر. لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا، فبالرَّغم من هزالة جسدي إلَّا أنَّ ما أحمله له من غيظٍ كفيلٌ بأن يجعلني محمَّد علي كلاي متى ما قابلتُ وجهه. لكمةٌ واحدةٌ فقط ستكون قاضية، ولا يهمُّني أن أسمع الزغاريد خلفي. سأكتفي عوضًا عن أجسادهنَّ بأن يتكاثر المال في جيبي، وأن يكفَّ هو عن تمرير جيناته لأجيالٍ أخرى، وهذا أعظم ما قد أُقدِّمه للبشريَّة. فمثل هذه المخلوقات الكريهة لا أدري لِمَ تتكاثر، والأعجبُ حقًّا أنَّها الأكثر تكاثرًا. أمَّا القسم الثاني من النظريَّة، فإنَّه يضع التفضيل بيد الإناث، كمجتمعات

قرود البونوبو، حيثُ تتسيَّد الإناث عرش مجتمعهنّ، وذلك ما نلاحظُه أيضًا، وإنْ بشكلٍ أقلَّ وضوحًا، في مجتمعات البشر. وصدقًا أنا هنا قد أتسامح قليلًا مع منطقيَّة هذا القسم من النظريَّة، فلطالما كانت للإناث من جميع المخلوقات خياراتهنَّ الغبيَّة، فهنَّ ينظرن إلى لون الريش وضخامة البنية، فالأوَّل يبرِّر وجود ذيل الطاووس، أمَّا الثانية فتبرِّر وجود ذلك الكرش المتدلِّي على ركبتَي كومة الشحم.

إنَّه يتقمَّص دور الطاووس الآن إذن، وربَّما تقمَّص لاحقًا دور قرد البونوبو، والمهمُّ أن ينجح الأمر. من الجميل أن تستهدف المتحذلقين الذين يستخدمون عمقهم المصطنع، كما يستخدم الطاووس ذيله، والأجمل أن تستهدفهم بالشيء ذاته الذي يتَّصفون به، فهم متكبِّرون يجرُّون خلفهم العديد من الأفكار السخيفة والمصطلحات الرنَّانة، من تلك التي تضطرُّك للبحث عن معناها باللغة العربيَّة.

قبل يومَيْن حلَّ ضيف برنامج الاحتراق الوظيفيّ، الذي ذكرتُه قبل قليل، ضيفًا على حلقةٍ أخرى بعنوان سيكولوجيَّة الإنسان الحداثيّ. بدا الضيف وكأنَّه يتحدَّث بلغةٍ مختلفة، وإن استعمل الأبجديَّة ذاتها. لنقُل إنَّه كان يهزُّ ذيله بكلِّ بساطة. متى تفهم عزيزتي المشاهِدة أنَّ فرص التكاثر لا تعرف الثقافة بل تستخدمها؟ من يدري؟ لعلَّ العلم كذلك استُخدِمَ للتكاثر! أظنُّ أنَّ داروين نفسه تحسَّنت فرص تكاثره كثيرًا بعد أن أثبت نظريَّة الانتقاء الطبيعيّ. أوه! أيُّ دوَّامةٍ هي هذه؟

انتهى التصميم، وكان عظيمًا، على الأقلِّ في نظري: ذَكرٌ

telegram @soramnqraa

طاووسٍ ضخم البنية، فاردًا ذيله بألوانٍ زاهيةٍ ورقبته الطويلة شامخةٌ نحو السماء. وفي المقابل أنثى الطاووس، بلا ذيلٍ بطبيعة الحال، فاغرةً فاها وقد تدلَّى لسانها منه لفرط ما اشتهت الذَّكر.

تردَّدتُ في أن أضيف كلمتَيْن بالإنكليزيَّة توضحان المعنى، ولكنَّني تذكَّرتُ أنَّني أستهدف بهذا التصميم أولئك المتحذلقين. لنرَ إن كانوا سيفهمونها بأنفسهم، وإن كنت أشكُّ في ذلك. أغلقتُ حاسوبي المحمول، بعد أن أضفتُ التصميم إلى قائمة السلع وأنا أتمنَّى أن يشتري ضيف برنامج السيكولوجيا واحدًا منه، وقتها فقط سأشعر بأنَّني نجحت.

* * *

استيقظتُ على تنبيهاتٍ متتاليةٍ ارتسمَت على شاشة هاتفي النقَّال. الحقيقة أنَّني استيقظتُ على اهتزازه فقط. لا تجمعني بالنوم إلَّا الضرورة؛ هزائمه معي تقول إنَّه لم يبذل جهدًا كافيًا، وأولئك الذين لا يبذلون جهدًا معي، ولا يحاولون من أجلي، لا أجد مرارةً في ألَّا أحاول من أجلهم. كان البريد الإلكترونيُّ مكتظًّا بإشعاراتٍ تقول إنَّ مبيعات الطاووس ازدادت على نحوٍ ڤيروسيّ. فكَّرتُ كيف سأشكر الطريقة الڤيروسيَّة؟! ربَّما أعتمد الڤيروس تصميميَ القادم، ولا مانع لديَّ في أن يكون لشكري عائدٌ مادِّيّ.

بدا نجاح التصميم غريبًا، ولكنَّني فطنتُ إلى أنَّ ما تتحدَّث عنه دروس التسويق، والطرق التي تستهدف من خلالها فئةً من العملاء، ليست صحيحةً على الدوام، فالناس لديها أذواقٌ غريبةٌ

telegram @soramnqraa

أحيانًا، ولا أقصد هنا اللباس فقط، بل إنَّ الغرابة تغطِّي ما هو أشمل وأعمق من ذلك. حتى في عزلتي هذه يطلع لي بشرٌ أغرب من أولئك الذين قد يرتدون أرديةً عليها طاووسٌ بألوان ذيل زاهية: بشرٌ من كلِّ شكلٍ ونوعٍ، ساعين سعيًا محمومًا إلى ألَّا يشبهوا بعضهم بعضًا، حتى إنَّهم في سعيهم إلى التفرُّد صاروا يبدعون في التنميط واختراع الكليشيهات. لكن ما علينا، لا بدَّ للآلة من أن تواصل دورانها، وكلُّ شخصٍ هو زبونٌ مفترَضٌ ينتظر أن نصمِّم له رداء. أرديةٌ تُرضي جميع الأنواع من البشر، المعروفين وغير المعروفين، الذين تشملهم الإحصاءات والذين لا يذكرون في أيِّ سجلٍّ أو إحصاء، الذين استقرُّوا لأنفسهم على جنسٍ والذين يُعرِّفون أنفسهم بأنَّهم غير محدَّدي الجنس، الذين تعبِّرُ عنهم صيغة المفرد والذين يطالبونك بأن تخاطبهم بصيغة الجمع!

«مشكلة عالم أوَّل». جملةٌ سمعتُها مرَّةً من مثقَّفٍ آخر على قناةٍ أخرى، وهذه المرَّة الوحيدة التي استسغتُ فيها جملةً من مثقَّف، فقط لأنَّها حقيقيَّة. حتى المشكلات ابنة بيئتها، فمشكلات العالم الأوَّل ذاك لا تعني أحدًا هنا، في «العالم الثالث». لا تعنيني أيَّة مشكلةٍ من مشكلات «العالم الأوَّل»، ويمكنني القول إنَّ مشكلات العالم الذي أعيشُ فيه لا تعنيني كذلك، وإن كانت أكثرَ واقعيَّة. ما هو واقعيٌّ بالنسبة إليَّ هو أنا، وكيف عليَّ أن أنجو. أمَّا غير هذا فلا أملك وقتًا، أو حتى طاقة، لأفكِّرَ به أو أتَّخذَ موقفًا منه؛ فأنا حتى الآن لم أتمكَّن من أخذ موقفٍ من أشياءَ لصيقةٍ بي كحلاقة شاربي، أو غسل سترتي السوداء التي لست

telegram @soramnqraa

أدري حتى أين هي الآن. آخر همومي إذن مسألةُ ضمائر اللغة التي بات البشر هناك يتلاعبون بها، كما تلاعبوا بكلِّ شيء، في الوقت الذي يجدر بهم أن ينتبهوا إلى ضمائرهم ـ ها أنا ذا أهديهم إلى مشكلةٍ حقيقيَّةٍ تستحقُّ الاهتمام ـ التي لا أدري إن كانت لا تزال حيَّةً أصلًا، ضمائرهم التي صارت غريبةً شائهةً كنكتةٍ تافهةٍ قيلت في عزاء.

كلُّ ما أحتاجهُ أن أتعامل مع ذاتي، مع مشاكلي التي لا تنفكُّ تتكاثر في كلِّ مرَّةٍ أفتح فيها عينَيَّ لأجدني أواصل الغرق مع بداية كلِّ يوم، أعمقَ فأعمق. غريقٌ أنا، أُصارِعُ لأنجو، فكيف أحفل بقضاياهم «الكونيَّة»؟ كيف أهتمُّ بمشكلةِ طفلٍ يبكي على الشاطئ لأنَّ بائع المثلَّجات لم يُحضِر اليومَ نكهتَه المفضَّلة، أو رَجلٍ بقميصٍ مشجَّرٍ يبحث عن شبكة إنترنت لينضمَّ إلى اجتماعٍ فاته نصفه، أو امرأةٍ تبحث عن واقي الشمس في حقيبتها فلا تجده؟ لا يعني ذلك كلُّه شيئًا أمام غرقي وتخبُّطي في الجهة المقابلة. إنَّ الأمر يبدو وكأنَّ العالم الأوَّل يهزأُ من صراعاتي، بل إنَّه حقًّا يفعل ذلك في كلِّ فقَّاعةٍ يطفو بها إلى السطح، لدرجة أنَّني أتخيَّلُ رجلًا أبيضَ ينفخُ في حلقةٍ صابونيَّةٍ نافثًا فقَّاعاتٍ لا تُحصى نحوي. أضرب بذراعَيَّ في اللجج، أبحثُ عن طوقِ نجاة، ولا أجد حولي إلَّا فقاعات. أظنُّ أنَّ هذا يُزهِدني حتى في النجاة، فما الذي يستحقُّ أن أنجو لأجله؟

فَرِغَتْ آخر علبة سجائر لديّ، وهذه مشكلةٌ لا فقاعة، وبإمكان العالم الأوَّل الانشغال بها. أمَّا حين تذكَّرتُ أنَّ قنِّينة المياه قد فرغتْ أيضًا، أدركتُ أنَّ يومًا كهذا قمينٌ بأن يدفعني،

عبر سلسلةٍ من المشكلات، إلى مواجهة مشاكلي النفسيَّة ـ أو السيكولوجيَّة، بتعبير ضيف البرنامج الشهير ـ مع العالم. وبما أنَّني فكَّرتُ في السيكولوجيا، ففي الحلقة نفسها التي استضافت المحلِّلَ الشهير، تحدَّثَ صاحبُنا عن «سيكولوجيَّة الإنسان الحداثيّ». وبعيدًا عن حساسيَّتي من هذه المصطلحاتِ التي لا أدري من أين يأتون بها، تساءَلتُ إنْ كنتُ إنسانًا حداثيًّا، أو إنْ سبق لي أن كنت كذلك ذات يوم؟ أظنُّ أنَّ المصطلحات، كما المشكلات، هي ابنة بيئتها، وأنا كذلك. لم يتغيَّر شيءٌ منذ آلاف السنين، كلُّ ما تغيَّر هي الأدوات التي أصبح يستخدمها الإنسان «الحداثيّ». ولكنَّ الإنسان هو هو منذ أن توصَّل إلى كونه إنسانًا، وهذا أمرٌ محبطٌ جدًّا. لا شيء في الناس يدعو إلى الدهشة. من السهل التنبُّؤ بطريقتهم التي كان عليهم أن يُحدِثوها، وليتهم فعلوا! لو فعلوا لما احتجنا لاستنساخ «مصطلحات عالمٍ أوَّل»، لنُبهِر بعضنا بعضًا هنا.

كان عليَّ أن أقطع حبل أفكاري هذا، وأتحيَّن أفضل فرصةٍ للنزول لإعادة تموين هذا الجُحر الذي أسكنه بقيمةٍ تفوق قيمة ما آكل فيه وأشرب. أظنُّ أنَّني، عندما أقوم بهذا الفعل الاستهلاكيّ، لا أفرق كثيرًا عن إنسان العصر الحجريّ.

لبستُ سترتي السوداءَ التي وجدتها بصعوبة، فمنذ أن نزعتُها عنِّي ورميتُها كيفما اتَّفق، قبل قرابة أسبوعَيْن، لم أجد حاجةً إلى البحث عنها. لا أدري لماذا اعتدتُ رميها في كلِّ مرَّة، وكأنَّها المرَّة الأخيرة التي سأحتاجُ فيها إلى الخروج إلى العالم. أظنُّ أنَّني ما زلت أغذِّي في نفسي أملًا ما بالخلاص من هذا العالم.

بما أنَّني قد وجدتُ نفسي عالقًا هنا، فليس من المعقول أن أعلق أكثر! عليَّ أن أبقى خفيفًا قدر المستطاع. هذه الحياة أشبهُ ببحرٍ لجِّيّ، كُلَّما نزلتَهُ مُثقلًا، ولو بسترة، قلَّت فُرص نجاتكَ منه.

خلال نزولي قابلتُ جاري الشيخ. لم ينظر إليَّ هذه المرَّة، ولم يُتمتم بالتحيَّة حتى. ظننتُ أنَّ هذا الأمر سيُريحني، ولكنَّه كان على عكس ذلك. إنَّها طبيعةٌ بشريَّة، إذ لطالما تمنَّيتُ لو أنَّه بادر إلى هذا التجاهل منذ اليوم الأوَّل الذي سكنتُ فيه هنا، ولكن ما إن انتقل الوضع من الفكرة إلى الفعل حتى توجَّست. هممتُ بأن أسأله، لولا أنَّه أوصد بابه بسرعة. يبدو أنَّه بدأ يستخدم طريقتي في الاستعجال، وأعترفُ بأنَّ الأمر لم يكن مريحًا. وجدتُ شيئًا من العزاء في كونِه لم يكن يحمل شيئًا ثقيلًا هذه المرَّة. خلوٌّ يده من أيِّ ثقلٍ مبرِّرٌ كافٍ لتصرُّفه، وهذه طبيعةٌ بشريَّةٌ أخرى؛ فالبشر يتخلُّون عن الآخر سريعًا بمجرَّد أن يُدركوا أنَّهم لا يحتاجونه، أو بمجرَّد أن يظنُّوا ذلك على الأقلّ، كما فعل جاري تمامًا حين أغلق بابه في وجهي. وفي أحيانٍ كثيرةٍ يتخلُّون عن الآخر من دون سبب، يتخلُّونَ عنه ببطء.

فور خروجي من باب البناية صدمتني حرارة الشمس، حرارةٌ لا تُطاق، وهي سببٌ كافٍ ليلزم الناس بيوتهم، إلَّا أنَّ الشارع كان مكتظًّا بهم. وقفتُ برهةً قبل أن أخرجَ من البوَّابة. حدَّدتُ مكان الدكَّان بدقَّة. وضعتُ قبَّعة السترة على رأسي اتِّقاءَ الناس لا الشمس. أغمضتُ عينَيَّ قليلًا، قبل أن أفتحهما منطلقًا بخطى متسارعةٍ نحو الهدف.

الخروج من الشقَّة يصبحُ أشدَّ مرارةً في كلِّ مرَّةٍ أجدني

مضطرًّا فيها لأن أخرج. إنَّ النظر في وجوه البشر، وشمَّ روائحهم، عملٌ يستهلكُ منِّي الكثير من الطاقة التي لا أملكها أصلًا، فضلًا عن اضطراري إلى التملُّق، وربَّما إلى الحديث في مواضيع كثيرة، وهو اضطرارٌ يأكلني. أذكرُ أنَّني كنت، في صغري، أكثر الأطفال حركة؛ أتحرَّك لدرجةٍ تكسبني بُغضَ آباء الأولاد الآخرين وأمَّهاتهم. كنت من نوعيَّة الأطفال الذين لا يمكن توقُّع حركتهم أو فعلهم. ربَّما أكون قد استنزفتُ طاقتي كلَّها آنذاك!

عُدتُ وأنا بالكاد أستطيعُ أن أحمل ما ابتعتُه. يبدو أنَّ ثمَّة أشياء أخرى، عدا الخروج من المنزل، لم يعد بي طاقةٌ لحملها. هل كان جاري الكهل يعاني ممَّا يحمله بيدَيْه، أم ممَّا يواجهه خارج باب البناية؟ لم تكن الأكياس التي أحملها ثقيلة، ولكنَّني واهن القوى بعد أن فقدتُ كيلوغرامَيْن ونصف الكيلوغرام من وزني خلال أسبوعَيْن فقط. بهذه الحسبة أحتاج أربعةً وعشرين أسبوعًا بالضبط لكي أفقد وزني كلَّه وأختفي، إنْ استمرَّ وضع مبيعات أرديتي العُلويَّة على هذه الحال.

4

استيقظتُ اليوم بمزاجٍ جيِّدٍ فعلًا. لم يمرَّ عليّ، خلال الأشهر الثلاثة الماضية، يومٌ واحدٌ يمكن أن يُعتبَر جيِّدًا، أو حتى قريبًا من دائرة الجيِّد. لم أبرح فراشي إلَّا نادرًا، حتى بدأت آلامُ أسفل ظهري تركلني عن السرير. قرَّرتُ حينها البدءَ بحركاتٍ رياضيَّةٍ للاستطالة كلَّما شعرتُ بألمٍ ما. كنت قد تعلَّمتُ تلك الرياضة الخفيفة من اليوتيوب، خلالَ بحثي عن رياضةٍ لا تتطلَّب إلَّا القليل من الجهد. تكفي تلك الحركة البسيطة لجسدٍ نحيلٍ كجسدي، فأنا لا أريدُ أكثر من لياقةٍ تكفي لمشوارٍ قصيرٍ نحو الدكَّان المقابل، ثم صعود الدرج مرَّةً أخرى إلى هُنا. أمَّا أن ألجأ إلى رياضةٍ مقاومة، رياضةٍ لبناء كتلةٍ عضليَّةٍ أكبر من حاجتي، فذاك من الأمور التي لطالما احتقرتُها. إنَّه ذيل طاووسٍ آخر ليس إلَّا، وأنا لم أعتَد على أيِّ شيءٍ اعتيادي على العيش بالحدِّ الأدنى.

telegram @soramnqraa

أثناء مشاهدتي إحدى تلك التمارين الرياضيَّة، قرَّر يوتيوب أن يبيعني إعلانًا لتطبيقٍ يَجمَع الأطبَّاء النفسيِّين في منصَّةٍ واحدة. اقتصادٌ تشاركيٌّ من نوعٍ آخر. على الأطبَّاء النفسيِّين أن يشكروا آدم سميث الآن، وينبغي أن يسير المرضى في إثرهم بطبيعة الحال، وأن يهلِّلوا شاكرين سيِّدَ الاقتصاد الحديث.

يُتيح لكَ هذا التطبيق تصفُّح تقييماتهم، والقراءة عن خبراتهم، ومن ثم لكَ أن تحجز موعدًا عن بُعد، من دون أن تخشى إفشاءً لبياناتك. كلُّ ذلك سهلٌ وميسَّرٌ بالطبع، إذ يكفي أن تظنَّ أنَّ بداخلكَ عطبًا. تساءلتُ إن كان اليوتيوب يعرفُ عن آلام ظهري وحالتي النفسيَّة أكثر منِّي؟ إذ إنَّ خوارزميَّاته بدأت تلحظُ وضعي البائس، وتستغلُّهُ لتبيعني إعلاناتٍ تُناسب هذا البؤس. ولكي أتجاوز هذا الاستهداف المركَّزَ بالإعلانات، عليَّ أن أدفع اشتراكًا شهريًّا في المنصَّة، اشتراكًا يتحالف مع كومة الشحم، مالكِ البناية، في الاقتيات على ما في جيبي من فتات. ولأنَّ جيبي لا يحوي تجديدًا على الفتات الذي فيه، فقد فضَّلتُ الخيار الأوَّل؛ أن أُنصِّبَ نفسي هدفًا لقصف الإعلانات. والحقُّ أنَّ بؤسي هذا يستحقُّ أن يقتات القومُ على مائدته. حسنًا؛ ولكن إلى أيِّ مدى يستطيع الإنسان أن يعتاش على بؤس الإنسان؟ هل يكون إدماني على الاستماع إلى أغاني لانا ديل ري الكئيبة هو ما وشى بي عند يوتيوب؟ تذكَّرتُ آخر يوم لي في العمل، حين طلب المدير التنفيذيُّ لقائي في مكتبه. إنَّها حركةٌ يُقدِمُ عليها المدراء التنفيذيُّون دائمًا، إلى درجةٍ تجعلني على يقينٍ من أنَّها متضمَّنةٌ في وصفهم الوظيفيّ. بل أكثر من ذلك، هي جزءٌ مهمٌّ من الحوافز

التي يحصل عليها هؤلاء المدراء التنفيذيُّون، جنبًا إلى جنبٍ مع الخانات الستّ، أو أكثر، للأرقام التي يتقاضونها كلَّ ربعِ سنة؛ فالإنسان متى ما شبع مالًا، احتاج إلى ألَّا تجوع رغباته الأخرى في سحق بني جلدته وإرهابهم. منصب المدير هو ذيل الطاووس بالنسبة إلى ذلك الرجل. كنت أعي تلك النقطة جيِّدًا، لذلك حرصتُ دائمًا على أن أُفسِد عليه متعةَ نفش ريش ذيله في وجهي.

عندما دلفتُ إلى مكتبه واثقًا، وكان هذا هدفي الأوَّل في مرماه، فالتنفيذيُّون خاصَّةً يحبُّون مَن يُلقي بثقته وكرامته خارج مكاتبهم، بل خارج مقرِّ العمل إن أمكن. ما إن دخلتُ مكتبه حتى طالع جسدي، متوقِّعًا أن يرى فيَّ أمارات القلق أو التردُّد، ثم رفع عينَيْه نحو يدَيّ، فإذا بهما ثابتَيْن كذراعَي صنم. هنا تغيَّرتْ نظرته، وبدا أكثر عزمًا وتصميمًا وفشلًا في استحضار مشاعر خوفٍ كانت قد غادرتني منذ زمنٍ بعيد. ابتسمتُ في وجهه ابتسامةً عريضةً مصطنعة، وكانت ابتسامتي تلك الهدف الثاني الذي استنفر دفاعاته التنفيذيَّة، فأخبرني مباشرةً بأنَّه لاحظ عليَّ تشتُّتًا، ما يوحي بأنَّني غارقٌ في المشاكل، مشاكل ذات طبيعةٍ نفسيَّةٍ على الأغلب. وبدلًا من التسرُّع في قرار الاستقالة، من الأفضل لي أن أستخدم التأمين الطبِّيّ، الذي «يُعطيني» ـ وهذا تعبيره الحرفيّ، وهو تعبيرٌ تنفيذيٌّ بامتياز ـ الحقَّ في البحث عن مساعدةِ مختصٍّ ما، وأنَّه، مشكورًا، مستعدٌّ للتفاهم مع الموارد البشريَّة لمنحي إجازةً تمتدُّ لشهرٍ كامل، متى استدعت الحالة ذلك. وهنا خُيِّل له أنَّه استعاد مجده، ولكن كان لديَّ مخزونٌ من الحنق جمَّعته من طول مجاورتِه في مكان العمل هذا. تحيَّن حنقي الفرصة لينصبَّ

telegram @soramnqraa

دفعةً واحدة، فكان أن أجبته: «أستاذي الفاضل، إنْ كان لديَّ أيُّ اعتلالاتٍ نفسيَّةٍ فهي بسبب بيئة العمل لديكم، فأنا لا أعود إلى المنزل إلَّا للنوم. كما أنَّ يومًا واحدًا كإجازةٍ أسبوعيَّةٍ لا يمنحني إمكان أن أراجع نفسي كفايةً لأعود «إليك» ـ وهذا تعبيرٌ تنفيذيّ، ولكنَّني تعمَّدتُ أن أُدخِله حتى لا تصبح المبارزة دامية ـ خاليًا من تلك الاعتلالات. وأمَّا بالنسبة إلى التأمين الطبِّيِّ الذي «تُعطيني» إيَّاه، فإنَّني دفعتُ لطبيب الأسنان من جيبي الخاصِّ في آخر مرَّةٍ ذهبتُ فيها إليه، لأنَّ «تأميني» الوظيفيَّ أقلُّ الفئات التأمينيَّة على الكوكب، بل أشكُّ بأنَّه قد وُضِعَ للعيادات البيطريَّة لكثرة ما رفضته المستشفيات، فما بالكَ بمساعدة مختصّ؟». كان عليه هنا أن يستسلم ويوقِّع ورقة الاستقالة، التي عزوتُ فيها استقالتي إلى أسبابٍ «شخصيَّة»، ولكنَّه أصرَّ على أن يُخرِجَ أسوأ ما فيّ، وكان له ما أراد.

حمَّلتُ التطبيق وتصفَّحتُه، ولم يحملني على ذلك أكثر من مللٍ أردتُ تبديده بمحادثةٍ مع غريبٍ «عن بُعد»، محادثةٍ قد تُخرجني من هذا المكان من دون أن أخرج. داخل التطبيق تستطيع أن تنضِّدَ النتائج بناءً على نوع الاعتلالات، حيث تنسدل عند الضغط على اسم العلَّة قائمةٌ طويلةٌ من المختصِّين بها؛ فهناك اضطراب الشخصيَّة الحدِّيَّة، واضطراب ما بعد الصدمة، وأنواع قلقٍ أكثر ممَّا كنت أعرف، حتى إنَّ بعضها كان مثيرًا للسخرية، أمَّا جلُّها فيشبه ما أشعر به. اضطرب رأسي من كلِّ هذه الاضطرابات، وأظنُّ أنَّ البشر يبالغون مرَّةً أخرى حتى في الاضطرابات. من المؤكَّد أنَّ عددًا منها يمكن تصنيفه كاضطرابات

عالم أوَّل، فأنا لم أسمع بها من قبل، بل حتى لا يمكنني تخيُّلها، مثل اضطراب النوم القهريّ، حيثُ إنَّ المُصاب به لا يمكنه مقاومة النوم في أيِّ مكان، وهذا بالنسبة إليّ، بل بالنسبة إلى العالم الثالث كلِّه، ليس اضطرابًا، بل أمنية. فكَّرتُ، والحال هذه، فيما لو كان ثمَّة معالجون مختصُّون في اضطرابِ التنفيذيِّين، أو الناجين منهم، فهذه من أهمِّ اضطرابات العالم الثالث التي تستحقُّ الالتفات إليها.

اخترتُ أن تكون النتائج حسب الأعلى تقييمًا للأطبَّاء، من دون النظر إلى تخصُّصاتهم. وبما أنَّني لا أثق بتقييمات الآخرين، ظللتُ أنزلُ حتى مسافةٍ بعيدةٍ عن النتيجة الأولى، بشكلٍ كافٍ يضمن لي أن تكون هذه اللاثقة في محلِّها. ثم اخترتُ استشاريَّةً مختصَّةً بالطبِّ النفسيّ، وعدَّة اضطراباتٍ أخرى لم أكلِّف نفسي عناء قراءتها. يبدو من السيرة الذاتيَّة للمستشارة، ومن عينَيْها أيضًا، أنَّها ذكيَّةٌ بما فيه الكفاية، فحجزتُ موعدًا معها في السادسة من مساء الغد.

* * *

«أتعلم أنَّ الشعور بالألم هو شعورٌ وحدويّ، بينما البكاء هو تعبيرٌ عن ذاك الشعور، ولكنَّه تعبيرٌ تشاركيّ؟ لذا نحنُ نبكي ليشعر الآخرون بنا، وهذا هو الهدف من البكاء أساسًا. غايتها أن تفضحكَ في محيطك. لقد طوَّرنا ملكة البكاء لكي نحفِّز نظام التكافل لدى الجماعات، وبالتالي نضمن الحفاظ على جنسنا البشريّ. فأنتَ لا تبكي إلَّا حين يصبح ألمكَ فوق الاحتمال، وتحتاج إلى مساعدةٍ لتخليصكَ منه. تأمَّلِ الرضيع الذي يعبِّر

ببكائه عن شعوره بالجوعِ أو الألم، حينها فقط يهرع من حوله لتفقُّد ما به. وعلى الطرَف الآخر، طوَّرت أدمغتنا كذلك طرقَ استجابةٍ مختلفةً للبكاء، فنحن نصبح أكثر رهافةً مع من يبكون، وهذا من شأنه أن يدفعنا إلى تقديم كلِّ ما نستطيع من أجل المساعدة. من لا يعبِّر عن ألمه الحادِّ بالبكاء، غصَّ به واختنق، فمن سيصغي؟ ومن سيحضن؟ وكيف النجاة؟!».

أوه! بإمكانكَ أن تتلمَّس هذا الدماغ من تعبيراته.

كان ما سبق التعقيب الأوَّل للطبيبة النفسيَّة على ما طرحته عليها. لقد أمضيتُ سنين طويلةً أقرأ وأستمع وأشاهد، لكن لم يكن لشيءٍ من ذلك كلِّه وقعٌ كوقعِ جُمَلها المكتوبة. هذه بدايةٌ جيِّدةٌ للمساء. أشعلتُ سيجارتي، وعدتُ أقرأ ما أرسلتْه لي عبر بريدي الإلكترونيِّ مرارًا وتكرارًا. انتابني شعورٌ شعرتُ به للمرَّة الأولى، أو لعلِّي سبق أن شعرتُ به لكنِّي نسيتُه، وهو أنَّ «اليوم يبدو يومًا مميَّزًا».

إنَّ هذا الاندفاع الغريب الذي ينتابني اليوم تجاه الحياة لا يشبهني، بل عليَّ كبح جماحه، فأنا أعرفُ مآلاته جيِّدًا. في المرَّة الأخيرة التي شعرتُ فيها بشعورٍ مماثل، قبل زمنٍ بعيدٍ بالتأكيد، وقفتُ على قارعة الطريق لأستفرغ. أفرطتُ حينها في استهلاك الوجوه والأحاديث مع الآخرين، على نحوٍ جعلَ رأسي يدور كردَّة فعلٍ على كلِّ القرف الذي واجهته. قرَّرتُ أن أُدِير قائمةَ أغنياتٍ للانا ديل ري، حتى أعود إلى اتِّزاني على الأقلّ. رفعتُ صوت الشاشة الذكيَّة، ودخلتُ الحمَّام لأحظى بحمَّامٍ دافئ، وتركتُ بابه مفتوحًا على مصراعَيْه حتى يبلغني الصوت.

أثناء استحمامي انتبهتُ إلى جسدي. تحسَّستُه كمن يكتشف نفسه للمرَّة الأولى. تُصنِّفني هيئتي في المرآة ضمن خانةِ إنسان الكهف. ما الفرق بيني وبين إنسان الكهف أصلًا؟ لا شيء تقريبًا! بحثتُ عن الحداثة فيَّ فلم أجدها؛ فأنا وإنسان الكهف أشعثان، وبلا عملٍ ثابت، وكلانا لا يُخيفنا إلَّا أن يباغتنا الليل ولم نضمن قوت يومنا بعد، والأهمُّ من ذلك كلِّه أنَّنا متوجِّسان من كلِّ شيءٍ حولنا.

لا أدري متى جززتُ شعري آخر مرَّة، لكنَّ منظري في مرآة المغسلة يُنبئ بأنِّي فعلتُ ذلك قبل نصف سنةٍ في أقلِّ تقدير. لذا فإنَّ خروجًا سريعًا صار أمرًا ملحًّا، ليس لأنَّ هناك من سينظر إلى هيئتي، ولكنِّي طامعٌ في التخفُّف من شعري أيضًا. إنَّ نفسي نفسها صارتَ عبئًا لا أطيق احتماله.

عند خروجي من الشقَّة، كانت القطَّة التي اختفت من الشارع المقابل تفترشُ قطعة قماشٍ أمام باب جاري الهَرِم، وهذا مؤشِّرٌ خطيرٌ وإن كان متوقَّعًا؛ فالقطط مخلوقاتٌ طفيليَّةٌ مجبولةٌ على أن تتمادى. فكَّرتُ إن كانت في المستقبل ستفترش لنومِها سريري. يا الله! لماذا استأنس الإنسان القطط؟ أستطيع أن أجد تبريرًا لكثيرٍ من عبث البشريَّة حولنا، ولكنْ عبث استئناس القطط من قِبل الإنسان عصيٌّ على التبرير.

كان الشارع هادئًا رطبًا، حتى إنَّ الأضواءَ المنسدلة من الأعمدة المزروعة على جانبَيْه تنعكس عليه. يكاد الوقت يبلغ منتصف الليل، وهذا توقيتٌ ممتاز، إذ يعني أنَّني غير مضطرٍّ إلى احتمال كثيرٍ من الوجوه. لا بأس بالقليل منها، فقط بالحدِّ

telegram @soramnqraa

الكافي لإثبات وجاهة كرهي للاختلاط بالبشر، من دون أن يستنزف ذلك طاقتي كلَّها.

ونظرًا إلى أنَّ عليَّ أن أوسِّع الفجوة بيني وبين إنسان الكهف، ظاهريًّا على الأقلّ، فسوف أدخل محلَّ أوَّل حلَّاقٍ أصادفه في تسكُّعي، وهذه عادتي وطريقتي مع الحلَّاقين وغيرهم: لا أصادقُ أحدًا، ولا أقصد مكانًا بعَيْنه.

في زاويةٍ غير بعيدةٍ من البناية التي أقطن إحدى شققها، كان محلُّ الحلاقة على وشكِ أن يُغلِق أبوابه، والحلَّاق مستغرقٌ في كنس بقايا شعر الآخرين، وتكويمها في إحدى زوايا المحلّ، لكنَّه رحَّب بي على كلِّ حال. وعندما اقتربتُ منه حاول أن يسأل، ولعلَّه تردَّد، ولكنَّ السؤال كان واضحًا على وجهه من دون أن يحتاج لأن يفتح فمه، بل ربَّما كان هناك الكثير من الأسئلة، وليس سؤالًا وحيدًا من قبيل: ما الذي تُعاني منه يا سيِّدي؟ هل أنتَ بخير؟ هل تحتاج إلى مساعدة؟ أو حتى: هل قتلتَ أحدًا اليوم؟ حاولتُ أن أبدو على ما يرام بابتسامةٍ ودود. جلستُ على كرسيِّه، وقلتُ مجيبًا على ملامحه المتسائلة: «أنا إنسان كهفٍ آخر، جئتُ لتجزَّ شعري وتكوِّمه مع بقايا شعر الآخرين هناك. أستطيعُ أن أعرف كم إنسانَ كهفٍ يعيش بالقرب من هنا بمجرَّد النظر إلى ذلك الركن». ضحكَ الحلَّاق بصوتٍ عال، وضحكتُ بدوري.

* * *

طيلة اليومَيْن الماضيَيْن لم يدخل محفظتي الإلكترونيَّة فلس. وعليه، فإنَّ مزاجي اليوم عَكِر، وهو ما تشهد به هذه المرآة المعلَّقة

خلف التلفاز مباشرة. ما يظهر فيها هو شكل إنسانٍ حديث، بِقَصَّة شعرٍ مُدرَّجة، وشنبٍ كثيف، ولحيةٍ خفيفةٍ أتلمَّسها ولا أراها. مرَّرتُ أصابعي برفقٍ عليها، وتحسَّستُ تلك الخشونة الرائعة. تذكَّرتُ شعورًا قادمًا من الماضي، لعلَّه خفَّف عليَّ ما رأيتُه في انعكاسي؛ إنَّه الشعور ذاته الذي كان ينتابني في الجمعة الأولى من كلِّ شهر، عندما كان والدي يحلق شعره استعدادًا للذهاب إلى عمله في صباح اليوم التالي، وكان حينئذٍ يخدم في الجيش. كانت تلك اللامبالاة تجاه شكله جزءًا مهمًّا عند من يخدمون في صفوف الجيش. أمَّا أنا فكنتُ، في أوَّل جمعةٍ من كلِّ شهر، أنتظرُ عودتهُ برأسٍ حليقٍ «على الزيرو». وما إن يدلف من الباب حتى يرفعني فوق كتفَيْه، لتتدلَّى ساقاي على صدره ويكون رأسه مباشرةً عند صدري، فأمرِّر أصابعي من أعلى جبهته تمامًا، من الخطِّ الأوَّل لمنبت شعره، حتى آخر خطٍّ أسفل رقبته من الخلف. الآن أُدرك أنَّ هذا الشعور فيه من أبي، بل إنَّه هو؛ تلك القسوة الرائعة، الصلابة الآمنة. إنَّ الآباء لشيءٌ آمنٌ ومقدَّس!

رفعتُ أحد حاجبَيَّ إلى أعلى حدٍّ استطعتُه، وتركتُ الآخرَ في وضعه الطبيعيّ. رفعتُ رأسي كذلك إلى أعلى كمن لا يأبه بشيء. رأيتُ انعكاس أبي في المرآة: نظرةٌ حادَّة، جسدٌ نحيل، ثقةٌ لا حدَّ لها.

«لماذا ما زلتَ قاعدًا هنا حتى هذا الوقت المتأخِّر من الليل؟ أليس لديكَ ما تفعله؟ فلتنَم إذن!... لا أحبُّ أن يكون في بيتي أحدٌ لا يفعل أيَّ شيء!».

ردَّدتُ ذلك بنبرةٍ صارمة. كانت تلك جملةً من جملِه التي

يردِّدها على الدوام، والتي ما لبثتُ أن حفظتُها كلَّها. في فترات غيابه عن المنزل لأداء خدمته، كنت أقفُ على كرسيٍّ في غرفة الخياطة رافعًا حاجبي الأيمن، وأصرخ بملء صوتي، مردِّدًا جُمَلَه. أردِّدها، جملةً جملة، فأشعر بأنَّ العالم يهدأ في رأسي. الجميع منصتٌ إليّ، والحياة على ما يرام.

انتبهت، بعد أن سبحَ رأسي في متاهةٍ من التفكُّر، إلى أنَّ شاشة روزنامة الأمم المتَّحدة على واجهة حاسوبي المحمول تقول إنَّ غدًا هو اليوم العالميُّ للمساواة في الأجر. قد لا تكون لديَّ مشكلةٌ كبيرةٌ مع هذا الأمر، في أصله على أقلِّ تقدير، إذ لا توجد لديَّ مشكلةٌ مع المساواة في الأجر من حيث المبدأ، وإن كان في ذلك مبالغةٌ تتعارض بالكلِّيَّة مع طبيعة سيرِ الحياة، إنَّما مشكلتي مع هذه «المساواة» نشأت من تبنِّي «الفكر» النسويِّ لها، مع تحفُّظي على كلمة فكر!

لا أدري ما الداعي إلى نشوء فكرةٍ كهذه من الأساس، إلَّا أنَّ الأمومة هي معضلة النسويَّة الأولى، وربَّما استخدمتْها أصلًا. إنَّني في مأزقٍ لا أُحسَد عليه، فكلَّما تفكَّرتُ في أمر النسويَّة أردتُ دحضها، إلى أن تطلَّ أمِّي فجأة. إنَّها السبب المنطقيُّ الوحيد لأتعاطفَ مع فكرةٍ كهذه، فهي خطُّ دفاعها الوحيد. أستطيعُ في حالةٍ كهذه أن أتنازل عن أجري بأكمله لامرأة، وليس أن أتساوى فيه معها فحسب. عندما أفكِّر في أمِّي، وأتذكَّر كيف أنَّها تكفُّ يدها عن أيِّ طبقٍ تضعه أمامنا حتى نفرغ منه، بينما لم تمدَّ يدها إليه إلَّا مرَّةً أو مرَّتَيْن لنأنس بها لا أكثر، أوقن أنَّ الأمَّهات وحدهنَّ يستحققن المطالبة بالأكثر، أمَّا المساواة فلا

تليق بهنّ. ولكنَّ أمِّي ليست هنا، وأنا مرتاحٌ جدًّا لأن أبالغ في دحض فكرة النسويَّة.

قرَّرتُ أن أبدأ في تصميمٍ جديد، يكون هذه المرَّة على قدر الاستفزاز الذي تعرَّضتُ له. فتحتُ صفحة برنامج التصميم، وبدأتُ أفكِّر. أوَّل ما خطر في بالي هو سام سميث، وأشياء هلاميَّةٌ كثيرةٌ سُحِبَت خلف هذه الفكرة. ترعبني فكرة أن يكون العالم لزجًا، لا يمكنكَ القبض على ثابتٍ واحدٍ فيه. اللزوجة أمرٌ مثيرٌ للاشمئزاز بالضرورة.

بدأتُ التصميم برسم امرأةٍ تطلُّ بجزئها العلويِّ من أعلى الإطار، مغطِّيةً أحد ثدييْها بيد، ومادَّةً بالأخرى ثدْيَها الثاني إلى رجلٍ أسفل الإطار، ارتسمتْ على وجهه علاماتٌ تستدرُّ الشفقة، وهو يمدُّ يده ليلقم الثدي البارز من يدها، بكلِّ الخنوع الذي يمكن أن يوجد في إنسان. عندما تأمَّلتُ التصميم وجدتُ فيه شيئًا من لوحة مايكل أنجلو «خلق آدم»، لكنَّني لم أُدرِك ما هو. ماذا يريد الرجل أسفل الإطار أن يصنع بالثدي؟ هل فيه حاجةٌ إلى الاكتمال أم رغبةٌ شبقيَّة؟ وكان لا بدَّ للمال أن يفرض نفسه ويظهر في المشهد، كأنَّما لا يكفي أن تحكم رغبتُه أو رغبتها الطبيعيَّتَيْن الأمر، فالمال شهوةٌ كذلك؛ إنَّه المعضلة الأساس ليوم «الأجور»، بل هو المنطلق والغاية. منه انطلقت كلُّ الحركات، بما فيها النسويَّة، وإليه تعود.

«كوني قويَّةً يا عزيزتي!». «أنا أيضًا!». «اشرب بيرة واسترجل!». «اختر الريد بول!». «انتبهي للريد فلاغ!». شعاراتٌ وشعاراتٌ مضادَّة. حركاتٌ وحركاتٌ معادية... هي ليست في

نهاية المطاف غير تروسٍ جديدةٍ في الآلة الضخمة نفسها، وكلُّ شعارٍ جديدٍ ما هو إلَّا زيتٌ لتواصل آلةُ المال سيرها، طاحنةً البشر. وفي كلِّ مترٍ تتقدَّمه لا بدَّ من قليلٍ من الوقود، لزوم «الشو»؛ وقود نساءٍ تَطحنُ حقوقَهنَّ الذكوريَّة، ووقود رجالٍ تتسلَّق على أكتافهم النساء، قبل أن يقرِّرن عند نهاية المطاف واكتمال المسيرة استبدالهم بغيرهم.

فكَّرتُ في حركة «أنا أيضًا»، التي شهدتْها هوليود قبل سنواتٍ قليلة. هوليود! ياالكمال المجاز والاستعارة هنا! عاصمة التمثيل عندما تصبح مسرحًا للواقع، واقع العلاقات المعقَّدة في ظاهرها، البسيطة في باطنها: المال، ولا شيء غير المال! هنا تسلُّقٌ بالفطرة، وهناك تسلُّطٌ بالسليقة. «أقصر الطرق إلى قمَّة الهرم، يا عزيزتي، سريرُ المنتج»، و«لستَ سوى درجةٍ موقَّتةٍ في مسار الارتقاء، يا عزيزي. انتظِر أن تهرم وتتعب، ويقتحم المشهد من هو أصغر منكَ وأوسَم، وسترى كيف ينقلب الملاك شيطانًا!».

ها هو التصميم قد اكتمل، فقد وضعتُ المال كلَّه في اليد الثانية للرجل الخاضع، وهو يمدُّها نحو المرأة أعلاه في مقايضةٍ واضحة. أتمنَّى ألَّا تبكي المرأة حين يبدأ ثديها بالتدلِّي إلى سرَّتها. نظرتُ إليها وفي رأسي سؤالٌ وحيد: ما هو التعبير الذي سيلبس وجهها لو عرفتْ أنَّ العالم الآن يناقش فجأةً سؤال: ما هي المرأة؟!

هذا الشكل الغازيُّ للأشياء، التي غدت فيه مستنسخةً ومتوقَّعةً إلى حدِّ الاشمئزاز، لا أظنُّ أنَّ أحدًا قد جال في مخيِّلته

من قبل أن يصل العالم إليه! أشكُّ في أحيانٍ كثيرةٍ في أنَّ العالم مرَّ بكارثةٍ مدمِّرة، ثم أصبح علينا فجأةً أن نتعلَّم كلَّ شيءٍ من جديد، لكن على نحوٍخاطئ، بل على نحوٍ مقزِّز. لا يمكنني أن أتخيَّل هذا التماهي بين الأشياء، إلى درجة أنَّكَ صرتَ حين تنظر إليها كأنَّكَ تنظر إلى الفراغ، ولكنَّ رائحة عفنٍ ما تجول حولك.

لم يحدث لي قطُّ أن احتملتُ الأشياء في وضوحها، فكيف إذا تداخلتْ وتمخَّضتْ عن هذه الفوضى؟ هل يحتمل العالم فوضويَّةً أكثر من فوضويَّته المعهودة أساسًا؟! أظنُّ أنَّ باومان لن يرتاح في قبره، لأنَّ وقته حان قبل أن يعرف أنَّنا لم نعد سائلين، فالسوائل يمكن استيعابها في حيِّزٍ ما. إنَّ الأمر أشبه ما يكون باللاشيء، بل إنَّه لا شيء تمامًا. فلا شيء يمكن أن يكون له تعريفٌ ما، ولا حيِّز بإمكانه استيعاب كلِّ هذا الغثاء. لعلَّ باومان مات فور أن أدرك النتيجة الحتميَّة لحداثته السائلة ـ ها هو المصطلح اللعين يُحاصرني من جديد! ـ حيثُ يطالب الرجال «البيولوجيِّون» بحقِّهم في استخدام حمَّامات النساء «البيولوجيَّات». إنَّ هذا العالم بات مقزِّزًا بشكلٍ يفوق قدرته هو ذاته على استيعاب هذا كلِّه، وإذا استوعبه فإنَّني أرغب بحقٍّ في أن أخرجَ بكلِّ ما بي منه، أن أخرج من هذا الوعاء الغاصِّ بالنتانة.

الظاهر أنَّ البشر قد فقدوا أيَّ إحساسٍ بمعنى الأهمِّيَّة والحقيقة، فانطلقوا إلى اختراع قضايا سخيفةٍ تُعمِّق الشقَّ الذي ما انفكَّ يُباعد بيني وبينهم. قضايا العالم الأوَّل سخيفةٌ كلُّها. بل إنَّ العالم، بمراتبه كلِّها، ليس سوى متواليةٍ من القضايا السخيفة؛

سخفٌ يُفرِز سخفًا. . . في انتظار أن نبلغ النهاية، وما النهاية إلَّا اللاشيء. أن يكلَّ العالم عن إنتاج السخف، فيقرِّر أن تكون قضيَّته الأولى هي اللاشيء؛ رؤوسٌ فارغةٌ تحشو نفسها بمزيدٍ من الفراغ.

«مساواة». كان هذا اسم الرداء العُلويِّ على المنصَّة. أحببتُ أن أستفزَّ الطرفَيْن دعائيًّا لدعم جيبي. الطرف الممانع سيقول إنَّ هذه ليست مساواة، والطرف التابع سيقول إنَّ المساواة التي يدَّعيها «الفكر» النسويُّ ليست بهذه السطحيَّة. وأنا سأخلد إلى سريري هذه الليلة أنتظر «الأموال» التي ستدخل حافظتي، وغاية أمانيَّ أن يكون أجري «مساويًا» لأجر المحاسِب في أقلِّ تقدير، وإن كان يحقُّ لي أن أطالب بالمساواة مع أجر المدير التنفيذيّ.

* * *

ـ كيف تشعر اليوم؟

ـ حتى «الآن»؟ أظنُّ أنَّهُ يومٌ بمزاجٍ جيِّد.

ـ جيِّد! هذا ليس كافيًا.

ـ الأيَّام بالنسبة إليَّ إمَّا أيَّامٌ جيِّدة، وهي القليلة، أو أيَّامٌ سيِّئة.

ـ خبرٌ ممتازٌ إذن!

ـ بل خبرٌ جيِّد.

كانت الطبيبة النفسيَّة تظهر على شاشة الحاسب المحمول الموضوع أمامي. توقَّعتُها برأسٍ أكبر، كرأس كائنٍ فضائيّ، فطريقتها بالحديث وتفكيك الأشياء مدهشةٌ إلى الدرجة التي لا

يمكنكَ أن تتخيَّل أنَّها صادرة من رأسٍ عاديّ.

كنتُ قد رأيتُ صورتها في الملفِّ التعريفيّ، ولكن أغلب هذه الصور تخرج بعد عمليَّات فلتَرةٍ وإضافاتٍ وحذف، غير أنَّ صاحبتنا تظهر بوقارٍ كامرأةٍ سويَّةٍ هادئة، من دون إضافات، وبشكلٍ مباشرٍ لا يمكن التشكيك فيه.

ـ تبدو رائعًا اليوم! أظنُّ أنَّ هذا الشارب الكثيف يناسبكَ تمامًا. دعني أخمِّن: حالتكَ النفسيَّة ممتازةٌ اليوم. لا تقُل إنَّني فشلتُ في التوقُّع، فأنا جيِّدةٌ في هذا.

ـ الحقيقة أنَّ حالتي النفسيَّة كانت مقبولةً حين ذهبتُ إلى الحلَّاق، أمَّا الآن فالأمر عصيٌّ على التحديد. يبدو كلُّ شيءٍ محايدًا، رماديًّا وباردًا. لا يمكنني أن أتيقَّن من شيء، وهذا ليس بالأمر بالسيِّئ، ففي أحيانٍ كثيرةٍ أحبُّ أن تكون الأشياء معلَّقة.

اعتلت وجهها ابتسامةٌ سرِّيَّةٌ أمكنني كشفها بصعوبة، قبل أن تقول:

ـ ولماذا لا يمكن للإنسان أن يقرِّر ما الذي يشعر به؟ لماذا لا يمكنكَ أن تكون في أفضل حالاتكَ في هذا اليوم على وجه التحديد؟

ـ مركز القرار يا دكتورة. مركز القرار ليس بيدي، بل بيد الكيمياء وما يحفِّزها. أظنُّ أنَّ الإنسان أسيرٌ لكيمياء دماغه، وهذه المعادلات الكثيرة والمعقَّدة التي تحدثُ في الدماغ ونواقله العصبيَّة لا أملك التحكُّم فيها. وحدهم مدرِّبو التنمية البشريَّة ودعاةُ «السيطرة» على الحياة من يبشِّرون بهذه الترَّهات. أمَّا أنا

فأعلم أنَّ فكرةً ما تستيقظ في رأسي في كلِّ يومٍ أستيقظ فيه، وأنَّ هذه الفكرة بالذات تكون ما يُحدِّد مزاج يومي كلَّه. اليوم، على سبيل المثال، استيقظتُ واستيقظتْ معي فكرة: لماذا لا يستطيعُ الإنسان أن ينسى؟ أترين؟ هم يقولون لنا إنَّ النسيان أمرٌ معقودٌ بالزمن، فكلَّما مرَّ وقتٌ كافٍ على أمرٍ ما فإنَّك تنساه بالضرورة، وهذا أمرٌ غير صحيحٍ البتَّة، إذ لديَّ أمورٌ كثيرةٌ معلَّقةٌ منذ سنواتٍ طوال لم أنسَها، ويبدو أنَّني لن أنساها. إنَّني بحاجةٍ إلى أن أصدِّق كلامهم، بحاجةٍ لأن يكون واقعي الحقيقيَّ ما يقولون، ولكن إمَّا أنَّني كائنٌ هجينٌ يختلفُ عنهم، أو أنَّهم كاذبون، ولا أُبالِغ لو قلتُ إنَّني أؤمن بالاثنَيْن. والأمر يا سيِّدتي لا يقتصر على بداية اليوم، فالحالة تحكم نهايته أيضًا. ترتسم كثيرٌ من الأفكار والذكريات على سقف غرفتي، قبل أن يسرقني منها نومي على حين غرَّة، وما إن أنام حتى تبدأ حفلةٌ من الكوابيس... كيف ليومي أن يكون جيِّدًا إذن؟

اعتلت وجهها ملامح ارتياحٍ كبيرة، وكأنَّها بدأت أخيرًا تجد مدخلًا جيِّدًا للحديث، ثم قالت:

ـ هممم! أنا أوافقك. ولكن في أحيانٍ كثيرةٍ عليكَ أن تفكِّر بشيءٍ جيِّد، فدماغ الإنسان لن ينسى تلك البقع المضيئة التي مرَّت به في يومٍ ما. قد تجدها في الخلف، ذلك الأرشيف المُغبَّر في الذاكرة. وأقول مُغبَّرًا لأنَّك على ما يبدو لم تعد تستخدمه منذ زمن.

وضحكتْ.

لم يكن أمامي خيارٌ غير أن أبتسم لباقةً:

ـ صحيح، ولكنَّ الأرشيف فارغ. لقد حاولتُ مرارًا، وأنا الآن بعمرٍ لا بأس به، أن تكون لديَّ ذكرياتٌ رائعة، وأن أستخدمها لتغذية مزاجي المتقلِّب هذا على الأقلّ، وأحافظ على توازنه من خلالها، ولكنَّ أرشيفي فارغٌ يا سيِّدتي إلَّا من نِتَفٍ صغيرةٍ هنا وهناك، لا تنفكُّ تؤلمني هي الأخرى. إنَّ مفهومي للذكريات هو أنَّ الألمَ يسكن شطرَيْها؛ فالموجعة في أصلها موجعةٌ عند تذكُّرها، والمُفرِحة في أصلها موجعةٌ عند تذكُّرها. والثانية أشدُّ وطأةً بالنسبة إليّ، ففكرة أنَّ اللحظة الرائعة لا تدوم هي فكرةٌ قلقة. لقد فقدتُ ثقتي باللحظات الرائعة، وإن عشتُها فأنا أعيشها بقلقٍ وتردُّد؛ قلق الشخص الذي يعلم أنَّه سيتألَّمُ منها لاحقًا، وتردُّد ذاك الذي لا يرغب بأن يعيشها لأنَّ لديه ما يكفي... ما يكفيه من أوجاعٍ لا ترعوي الحياة عن صفعه بها. ألا يكفي أنَّني أُحارب الحياة من أجلي؟ لم يعد لديَّ الكثير لأُحارب أفكاري. تخيَّلي يا سيِّدتي أنَّ القضيَّة التي أُحارب من أجلها هي أن أبقى وحيدًا، وعندما أكون كذلك أجدني أحارب الوحدة. قضيَّتي خاسرةٌ منذ البداية، ولكنَّني قرَّرتُ أن أحاول، ليس لأنَّني متيقِّنٌ من النصر، ولكن لأنَّني متيقِّنٌ من أنَّها الملهاة الوحيدة أمامي كي أبقى. أمَّا الآن، فقد انكشفتْ أمامي هذه الملهاة وبتُّ أهزأ بها، وأهزأ من نفسي، وهي تهزأ منِّي.

اختلفتْ ملامح وجهها، وبدأتْ تكسوه تعابير الجدِّيَّة والتفحُّص، فقالت لي:

ـ أنت ناقم، وغاضبٌ جدًّا. هل تظنُّ أنَّ علينا أن نكتفي

بهذا القدر من الحديث اليوم؟

ـ لا يا سيِّدتي، إنَّ الوقت مواتٍ جدًّا لكي أفسِّر لكِ. أنا لا أدري لماذا عليَّ أن أفعل، ولكنَّني هذه المرَّة قرَّرتُ أن أترك التيَّار يجرفني. هذا استسلامي الأوَّل للحياة، عليكِ أن تحترمي هذا الاستسلام! احترمي هذا الجنديَّ العائد بعاهاتٍ دائمة، ورغبةٍ موقَّتةٍ في أن يحكي. أنا ناقمٌ نعم، فالخاسرون ناقمون، وغاضبٌ بطبيعة الحال، فأنا مرسولٌ لحربٍ تتجاوزني منذ البداية. لقد سمعتُ مرَّةً إحداهنَّ تقول ـ لا أدري أين على وجه التحديد ـ مقولةً رائعة، فحواها أنَّ الحرب بحاجةٍ إلى طرفَيْن يقرِّران خوضها، وهي اختارت ألَّا تخوضها، وبالتالي ليس ثمَّة من حرب. أمَّا أنا فلم يكن لديَّ هذا الترف، لقد وجدتُ نفسي مجبَرًا. تخيَّلي يا سيِّدتي أنَّ كلَّ ما أتمنَّاه الآن هو أن يكون لي خيار ألَّا أخوض معاناةً كهذه، أن يكون لديَّ ترفُ الانكفاء عنها على أقلِّ تقدير.

ـ إنَّ مفهومَ الحياة بالنسبة إلى الإنسان دليلٌ على حساسيَّته تجاه الأحداث التي يمرُّ بها خلالها، وأنا هنا لا أحكم عليكَ ولكنَّني أسمعك، وأحاول أن أفهمك. إنَّني وللمرَّة الأولى ألمس معاناةً بهذا الحجم. يبدو الأمر معقَّدًا، ولكن قد تكون قدرتكَ على التعبير هي السبب. قِلَّةٌ هم الذين يستطيعون التعبير عن معاناتهم بهذا الشكل، ودعني أقُل لكَ إنَّني منبهرةٌ بهذه اللغة، وأتساءل عن حجم الفرق بين ما تفكِّر به وما تعبِّر عنه. أظنُّ أنَّ بداخلكَ الكثير، والحقَّ أقول إنَّ الخطوة الأولى هي أن تستفرغه كاملًا، أن تعزله عنك، وتراهُ أمامكَ ككائنٍ منفصل.

ـ ها أنا أستفرغ هذا القرف أمامك. إيَّاكِ أن تُشفقي عليّ.

ـ من يستمعُ إليكَ في العادة؟

ـ لا أحد، لا أحد يا سيِّدتي! أنا كائنٌ يفوق الاحتمال. الكلُّ ينتظر منِّي أن أحضر في اللقاءات، ولكنِّي كنت أخرج مع الأصدقاء يومًا أو يومَيْن في الشهر فقط. كنت أخرج مع أصدقاء، في الحقيقة صديقًا أو صديقَيْن، ولكنَّ اختفائي لم يكن له مبرِّرٌ من وجهة نظرهم. كنت في أيَّامٍ كثيرةٍ أنظر نحو هاتفي وهو يرنُّ لدقائق، من دون أن أستطيع الإجابة. لم تكن لديَّ اللياقة الكافية للخروج أو التحدُّث مع أحد، وأغرب ما كنت أواجهه هو أن أبرح مكاني وأبذل أيَّ جهد. حدث هذا قبل وقتٍ طويل، عرفتُ بعده أنَّ نفسي أكثر من كافية. كانت هناك أيَّامٌ معدودةٌ تعتريني خلالها بهجةٌ مفاجئة، أستيقظ فيها كإنسانٍ آخر. حينها فقط أكون قادرًا على العيش، وهذا الوجه منِّي هو الذي يرغب الآخرون برؤيته، والذي أرغب برؤيته أنا كذلك. من هنا كان عليَّ كذلك أن أُصارِع من أجل الذهاب إلى العمل، وهذا الصراع أكل منِّي كثيرًا. بدوت خلاله ككائنٍ متوحِّشٍ وموحش، يتجنَّب الجميعُ التعاملَ معه. وقد أراحني هذا التجنُّب، فكلُّ ما أردته وأريده هو أن أخرج بأقلِّ الأضرار، وبعدها... غالبًا ما أنطفئ في الليلة ذاتها، وهذا الانطفاء هو أنا. أنا مُظلم، مُعتم، لا يستطيع أحدٌ أن يرى من خلالي. أَلِفتُ المكان وحدي، فيما الآخرون يتعثَّرون عند أوَّل عتبةٍ فيّ.

ـ الخروج أمرٌ متعب، ولكنَّه السبيل الوحيد لتجد من يسمعك. الإنسان بطبعه كائنٌ اجتماعيّ، كائنٌ يحيا بالعائلة

والأصدقاء والأحبَّة. وكما قلت، إنَّ الطريق الوحيدة للعثور على كلِّ هذا هو الخروج والتعرُّض لكلِّ الفضائل والرذائل، لكلِّ ما نقبله وما نرفضه، لنجد ما نحبَّ وما نكره. لا يمكننا أن نترك كلَّ الأشياء الجيِّدة فقط لأنَّ الأشياءَ السيِّئة حولها. عليكَ أن تنبش الحياة، ودعني أقُل لكَ إنَّ جلسة الاستشارة هذه ستكون الأخيرة عبر الشاشة، وستكون الجلسة التالية في عيادتي. سيكون من الرائع أن تأتي إلى العيادة، لو أمكنكَ ذلك.

ها هي الحياة تحاصرني مجدَّدًا! ليس لي بدٌّ من التجربة:

ـ ولكن إذا لم يسِر الأمر كما يجب؟...

ـ لا تستبق الأحداث، دعنا نَر!

ما إن انتهت «الجلسة» حتى شعرتُ بأنَّ هذه ملهاةٌ جيِّدة، شيءٌ مختلفٌ يستحقُّ أن يخترق روتيني البائس. لا يوجد ما هو أصعبُ من الحديث إلى شخصٍ كفَّ منذ زمنٍ عن فعل الحديث، ولكنَّه تمرينٌ جيِّدٌ على حياةِ البشر، تمرينٌ سوف يفيدني بطريقةٍ ما، وسأتدبَّر أمري كما اعتدت، فمن الأفضل دائمًا الحديث إلى مفردٍ بدلًا من مواجهة جماعة. لعلَّها فكرةٌ جيِّدةٌ تستحقُّ أن أُنهِي يومي بها. لأرى كيف سيكون مزاج الغد.

5

استيقظتُ في السابعة صباحًا على طَرَقاتٍ متتاليةٍ ومزعجةٍ على باب الشقَّة. بالكاد فتحتُ عينَيَّ على الرَّغم من العتمة حولي. لم تكن أمامي فرصةٌ لأبدأ بدايةً جيِّدةً كما كنت أخطِّط؛ ها هي الحياة قد بدأتْ تُمارس ألاعيبها من جديد. ألقيتُ نظرةً سريعةً على مبيعاتي التي بدأتْ ترتفع ارتفاعًا ملحوظًا، فمنذ تصميم «المساواة» الأخير، سار كلُّ شيءٍ كما توقَّعت. هذا شيءٌ جيِّدٌ أبدأ به يومي. سأتحدَّى أثر الفراشة الذي يفاجئني بالسوء دائمًا، وكأنَّني هدفه الأخير، ولكن لا بأس بهذا الأمر حتى الآن. هنالك رسالةٌ وحيدةٌ في بريدي الإلكترونيِّ من الطبيبة النفسيَّة، تؤكِّد فيه موعد الزيارة إلى العيادة. لم أكلِّف نفسي عناء أن أفتحه هذه المرَّة، حتى «الخطوة الأولى التي اتَّخذتَها خطوةٌ رائعة! بانتظار رسالتكَ لنحدِّد موعد الجلسة التالية. حتى ذلك الحين، كُن بخير».

telegram @soramnqraa

خطوة «رائعة»؟! ما الرائع في أنَّني بدأتُ جلسة علاجٍ نفسيّ؟ هل كنت بحاجةٍ إلى تلك الجلسة بالفعل، أم إنَّها تقول ذلك لأنَّ لقمة عيشها تمرُّ عبر جيبي؟ من الواضح أنَّ لقم عيش الأطبَّاء النفسيِّين كبيرة، إلى درجة أنَّ المرء لا يدري كيف لا يغصُّون بها!

فكَّرتُ في أن أضع رسالةً تلقائيَّةً لكلِّ عميلٍ يقرِّر شراء رداءٍ من تصميمي، أقول له فيها: «الخطوة الأولى التي اتَّخذتَها رائعة! بانتظار أن تقوم بشراء رداءٍ عُلويٍّ آخر».

بدا الأمر مضحكًا هُنا أكثر منه هناك. متى يكفُّ العالم عن سخريَّته منَّا؟! هكذا أنا، سريعًا ما أفقد إيماني بالأشياء. في البداية يبدو كلُّ شيءٍ برَّاقًا ورائعًا، ثم يبدأ بالشحوب التدريجيّ، ويخبو معه كلُّ الحماس الذي كان متَّقدًا. أتمنَّى الآن لو أنَّني لم أتحدَّث إلى الطبيبة! ماذا سيفيدني أن أدفع لأحدهم ليستمع إليَّ ويحاول أن يفهمني، أو يدَّعي أنَّه فهمني؟ أخ... ليتني لم أفعل!

هدأ الباب أخيرًا. لم يكن خلفه أحد. رائحة المساحة الفاصلة بين بابي وباب جاري العجوز امتلأتْ بتلك الروائح التي يحبُّها كبار السنّ، وخصوصًا النساء منهم. كانت هذه الرائحة تملأ المكان على استحياء، أمَّا الآن فهي تصرخ. كان السبب واضحًا؛ فباب جاري الكهل مفتوحٌ على مصراعَيْه، على غير العادة. وقفتُ برهةً أنتظر أن يخرج أحدٌ من الشقَّة، لكن لم يطلع من الباب غير الرائحة. استجمعتُ شجاعتي التي كانت مدسوسةً في مكانٍ ما، عاطلةً منذ أن تركتُ العمل، إذ لا أستخدمها إلَّا لمامًا، حين أصادف كرة الشحم المترهِّلة، مالك البيت الذي يستنزف شجاعتي بالإضافة إلى مالي.

كاد الظلام يخرج من باب الشقَّة. طرقتُ البابَ ولا مُجِيب، فدخلتُ أخيرًا. الرائحة الآن أقوى، أقوى إلى الدرجة التي تستطيعُ فيها أن تميِّز مكوِّناتها. هنالك شيءٌ من بخُّور المستكا، والكثير من الريحان، وشيءٌ من روائح البنِّ المُحمَّص. يفصلُ مدخل الشقَّة عن الصالة قماشٌ مُعتمٌ وثقيل، منسدلٌ على نحوٍ يشبه ستائر الأماكن القذرة. كان الضوء الوحيد الذي يعبر الصالة والشقَّة يأتي من شبَّاكٍ طوليٍّ في المطبخ، فيما احتلَّتْ صور صاحب البيت جدران الصالة محاطةً بإطارٍ مذهَّبٍ أنيق، لتُحاكي كلَّ مرحلةٍ من مراحل حياته. شدَّتني إحداها، وكان فيها بالزيِّ العسكريّ. يبدو عليه الوقار حتى في شبابه. لا بدَّ أنَّ رجلًا بمثل هذه الملامح كان يحظى باحترام كبيرٍ من قِبل جميع من عرفوه، ولا بدَّ أنَّ عملَه كان يُذكي فيه هذا الشعور بالأهمِّيَّة والوقار.

ثمَّة من يكتسبُ أهمِّيَّته من عمله، وما إن يتركه حتى يخفت هذا الشعور شيئًا فشيئًا حتى يموت. في أحيانٍ كثيرة، على المرء أن يُعدِّد مصادر تغذيته، وخصوصًا من الأشياء التي تبقى لفترةٍ أطول: عمله، زوجته، أبناؤه، ثروته، وهلمَّ جرًّا... يبدو أنَّ مصادر تغذية هذا العجوز محدودةٌ للغاية، مثل مصادر تغذيتي.

سمعتُ أخيرًا وقع خطواتٍ آتيةٍ من إحدى زوايا الصالة. قطع هذا الصوت حبل أفكاري الطويل. كانت الزوجة العجوز، تعلو وجهها ملامح الخوف والهلع. غسلت هذه الملامح حبَّات عرقٍ على الجبين، وفي المنطقة الفاصلة بين أنفها وفمها. وبالإضافة إلى كلِّ ما سبق، كانت المرأة تلهث.

سألتُ ما الذي حدث؟ فلم تقُل شيئًا، ولكنَّها بدأتْ تهمهم

بصوتٍ مرتفع، وتشير إلى مدخل غرفةٍ في صدر الصالة. عرفتُ أنَّها صمَّاء بكماء، وفهمتُ كيف لزيجةٍ مثل هذه أن تدوم. تقدَّمتْ أمامي فلحقتُها. كان الكهل فاغرَ الفم، وممدَّدًا على الأرض بسكون، من دون أن تتحرَّك عضلةٌ واحدةٌ من عضلات جسمه، أو ملمحٌ واحدٌ من ملامح وجهه. عندما اقتربتُ منه، كنت أستطيعُ أن أتحسَّس البرودة الخارجة من جسده عبر مسافة متر، أو أقلَّ بقليل. حاولتُ أن أسترجع دورة أساسيَّات إنقاذ الحياة، التي كانت واحدةً من أهمِّ متطلِّبات عملي السابق. لعلَّ المدير التنفيذيَّ كان يخاف أن يسقط من دون أن ينقذه أحد، والحقيقة أنَّه لو سقط لما كنت لأفعل شيئًا من أجله، عدا أن أبصق في فمه.

فككتُ عن صدره القميص، وبدأتُ أضغط على منطقة القلب بيدَيَّ نصف المقبوضتَيْن. كانت عيناه مغمضتَيْن ووجهه شاحبًا، تفوح من فمه رائحة الأسيتون. لو أنَّه يعي ما أفعل فلا شكَّ في أنَّه يقول في نفسه: «ماذا تفعل يا كلب؟! لقد كنتُ أنتظر لسنواتٍ هذه اللحظة، إيَّاكَ أن تفسدها!».

توقَّفتُ بعدَ محاولتَيْن أو ثلاث. كانت هذه المحاولات فقط لإرضاء السيِّدة العجوز، التي راحت تمشِّط الغرفة ذهابًا وجيئةً أمامي. اتَّصلتُ بالإسعاف، وسألتُ المرأة إنْ كان لديهما أبناءٌ لأخبرهم. هزَّت رأسها بالنفي، فربَّتُّ على كتفها بمشاعر حزنٍ كاذبة، وأخبرتُها بأنَّني سأنتظر معها إلى حين وصول المسعفين.

فهم هذا الكهل الحياة باكرًا. أدعو الله ألَّا يستيقظ، فهو رجلٌ لا يريد البقاء في هذا العالم بالتأكيد، وقد انتظر طويلًا هذه اللحظة. يمكنك أن تعرف هذا من كونه بلا أبناء، وبإمكاني أن

أؤكِّد أنَّه اختار هذا، مع أنَّ أكبر دافعٍ لأن يُنجِب هو ألَّا يحمل أنبوبة الغاز وحيدًا. كنت سأزدري هذا الدافع، لأنَّ دوافع الآخرين تشبهه، ولكن في الحقيقة غالبيَّة البشر بلا دوافع. هم يُنجِبون هكذا، لأنَّ هذا ما اعتادوا عليه، أو اعتادوا أن يروه حولهم على نحوٍ أدقّ. ولكنَّ هذا العجوز اختار أن يحمل أنبوبة الغاز بنفسه، ورضي أن يكون عالقًا معنا في هذا العالم، وأن يواجه قدره كما هو، من دون أن يُنجِب أطفالًا يحملون له أنبوبة الغاز، ثم يُنجِب هؤلاء بدورهم أبناءً يحملون لهم أنابيب الغاز. لعلَّ سبب تأخُّره في الرحيل حتى هذا اليوم هو زوجته الصمَّاء البكماء.

وصل المسعفون. سألوا إن كنتُ ابنه، فابتسمتُ وأجبت: «لا!... أنا جارهم. أسكن الشقَّة المقابلة».

نظر إليَّ أحد المسعفين بابتسامةٍ مريحة، فهو اعتاد مناظرَ كهذه بلا شكّ، حتى فقد حساسيَّته في التعامل معها. الأطبَّاء، والعاملون في الطوارئ، وكلُّ العاملين في مهنٍ مشابهة، لا يلبثون أن يتعاملوا مع حوادث الموت كأنَّها مجرَّد نزلة برد. إنَّها العادة، وطبيعة البشر أن يعتادوا حتى الأشياء التي تقتل أولئك الذين يواجهونها للمرَّة الأولى. هؤلاء سيعتادون بدورهم رائحة الفقد، الأمر أشبه ما يكون بالعيش في مكبٍّ للنفايات؛ تؤذيكَ الرائحة المنبعثة منه وتعلق بك، ولكن كلَّما أطلتَ البقاء اعتدتَ الأذى، حتى صار جوُّ المكان بالنسبة لكَ طبيعيًّا. أتفهَّم هذا جيِّدًا، ولكن علينا ألَّا ننسى على الأقلّ.

ركبتْ زوجته معهم في القُمرة الخلفيَّة لسيَّارة الإسعاف. وقبل

أن يغلق السائق عليهم باب القُمرة، نظرتْ إليَّ وكأنَّها توقَّعتْ أنَّني سأرافقها. رمقتني بنظرةٍ فيها الكثير من خيبة الأمل، فيما نظرتُ إليها بحزنٍ كبيرٍ وعميق. عليكِ الآن أن تصارعي الحياة وحدك. أهلًا بكِ في مكبِّ النفايات!

في شقَّتي، كان كلُّ شيءٍ هامدًا. أخرجتُ سيجارة، وبدأتُ أحدِّق في الهدوء. خالجني شعورٌ مريح، شعورُ جنديٍّ أسند ظهره أخيرًا إلى جدارٍ ما، وبدأ يتنفَّس ببطءٍ بعد أن أعلن قائده النصر.

* * *

في الأسبوع الماضي، كنتُ أسمع نشيج جارتي كلَّ ليلة. في الليالي الثلاث الأولى، لم يكن هناك أيُّ صوتٍ حزين. كان أقاربها من النساء ينامون عندها طيلة أيَّام العزاء، وأظنُّ أنَّها كانت تنتظر بصبرٍ لا يمكن احتماله أن يرحلوا من وجهها. لقد بدأ عزاؤها الحقيقيُّ في ليلة اليوم الرابع. كان لبكائها في تلك الليلة صوتٌ مختلف. ولأنَّها صمَّاء، لا أظنُّها تستطيعُ أن تلحظ أنَّ كلَّ مَن في البناية يسمعها. لم يَشْكُ أحدٌ في البناية من قِلَّة النوم بسبب نواحها الذي يرجفُ في الزوايا كلِّها. تعامل الكلُّ مع الأمر وكأنَّ شيئًا لا يحدث. لم يكن هذا ما اعتدنا عليه، إذ إنَّ السكن هنا يشبه السكن في عنبر سجن، أو في سكنٍ مُخصَّصٍ للجنود. أيَّة ضجَّةٍ تتعالى بعد العاشرة ليلًا، حتى لو كانت صوتَ تلفازٍ مرتفعًا، تدفع الحارس إلى أن يطرق الباب الذي تنطلق من ورائه، منذرًا أنَّه هو من تولَّى المهمَّة هذه المرَّة، أمَّا في المرَّة القادمة فسيكون الطارق كومة الشحم بشحمه ولحمه.

telegram @soramnqraa

عند الساعة الرابعة فجرًا يبدأ النحيب بالخفوت، وتبدأ تنبعث حشرجاتٌ وسعالٌ متقطِّع، بين الفينة والأخرى. تظنُّ أنَّ الأمر قد تمَّ التسليم به، ولكنْ سرعان ما يعود النحيب ليقتل ذاك الظنّ. ثم يسكن كلُّ شيءٍ فجأةً عند التاسعة صباحًا، وهنا يكون النوم قد هزمها بكلِّ تأكيد. كم من الوقت أمامها لتتقبَّل؟ كم من البكاء تحتاج لكي تنسى؟ لا أحد يعرف، فالأمر ليس ثابتًا، بل هو متعلِّقٌ بمدى هشاشة الإنسان. يُخيَّل إليَّ أنَّ الوقت بالنسبة إليها توقَّف لحظة تأكُّدها من خبر الوفاة، كما أنَّني أستطيع التخمين بأنَّها هشَّةٌ إلى الدرجة التي لن تتجاوز الأمر معها ما بقيت حيَّة. الخيار الأفضل لها أن تلحق به بأسرع وقت!

قبل الظهيرة كانت البناية مهجورةً تقريبًا، إلَّا من كلينا، أنا والسيِّدة العجوز. رأيتُ أنَّ الوقتَ مناسبٌ لعمل شيءٍ مختلف، فشرعتُ في إعداد وجبتي الوحيدة، ونادرًا ما أفعل، وذلك عندما أشعر بأنَّني بحاجةٍ إلى فعل شيءٍ مختلف. أقول نادرًا ما أفعل، لأنَّني لا أريد أن أعتاد الطبخ، فيصبح ممجوجًا مستهلَكًا فاقدًا للذَّته. هي الأشياء هكذا، علينا أن نُبقيها على بُعد مسافةٍ كافيةٍ لتحتفظ بدهشتها؛ فأنا آكل في الغالب مرَّةً واحدةً في اليوم، تكون في معظمها وجباتٍ معلَّبةً جاهزة. يخفِّف هذا الأمر عليَّ الكثير من الجهد. كما أنَّني أعتقد أنَّ الإنسان، منذ وُجد، لم يكن يأكل الكثير، بالإضافة إلى أنَّ القهوة المُرَّة التي أشربها في كلِّ صباح تمنع عنِّي الشعور بالجوع. أنا أشربها لتأخير جوعي قدر ما أستطيع، وليس لشيءٍ آخر من قبيل التركيز والنشاط، فهذه الأشياء يحتاجها العاملون المطحونون في سوق العمل. أنا أبعد ما أكون

عن الحاجة إلى ما يزيد من تركيزي، بل على العكس تمامًا، أنا بحاجةٍ إلى تشتيتٍ أكبر، وإلى أنواعٍ عديدةٍ من المنوِّمات. لديَّ ما يكفي من الأخيرة، وقد فشلتْ كلُّهاً في أن تمنحني نومًا هانئًا.

عند الظهيرة، أدركتُ أنَّ أمامي وقتًا بالكاد يتجاوز الساعة حتى يحين موعدي عند طبيبتي. شيءٌ ما يُكبِّلني، وعلى الأغلب أنَّ فكرة الخروج من هذا الجُحر هي ذلك الشيء. بدأتُ بقدمي أُقلِّب قطع الملابس المتناثرة على الأرض، باحثًا عن شيءٍ مناسبٍ، مناسبٍ لأن أصير شخصًا غيري. كان هناك بنطالٌ سماويُّ اللون، لا أذكر متى ارتديتُه آخر مرَّة، ولكن يبدو من مكانه النائي في ركنٍ من أركان الغرفة أنَّهُ قد تمَّ تجاهله لفترةٍ طويلة. غير بعيدٍ عنه، وجدتُ رداءً عُلويًّا أبيض. أستطيعُ تحديد المرَّة الأخيرة التي أرتديتُ فيها هذا الرداء، كان ذلك في يومي الأخير في العمل. من الجيِّد أنَّه ما زال نظيفًا. أشعر بسعادةٍ غامرةٍ لأنَّ بُقعًا من دم المدير التنفيذيِّ لم تكن عليه.

عند ناصية الشارع كان المشهد مأساويًّا: شمسٌ حارقة، واكتظاظٌ بالبشر لا يُطاق. شيءٌ يشبه خيوط الأفكار في رأسي. كلُّ شخصٍ أراه يشبه فكرة، والشارع يُمثِّل رأسي، فيما عيناي تحاولان أن تلحقا بإحدى الأفكار، ثم لا تلبثان أن تتجاهلاها لصالح فكرةٍ أخرى.

شعرتُ بأنَّني بالكاد أحصل على ما يكفي من الهواء حولي. هل هي نوبةٌ أخرى؟ هذا المكان غير مناسب. أسحبُ نَفَسًا عميقًا جدًّا، وكأنَّني لا أفعل. أحاول ألَّا أركِّز في هذه الفكرة. تزيد محاولاتي هذه من تفكيري فيها. أسحبُ نَفَسًا آخر، من دون

فائدة. هل سأسقطُ هنا؟ أغمض عينَيّ. يبدو قرص الشمس أوضح وراء جفنَيّ. أحاول أن أصوِّب تفكيري نحو فكرةٍ أخرى. أبحث داخل عقلي... أبحث وأبحث... ولا شيء غير أفكارٍ قاتلة.

أنقذني صوت زمُّور سيَّارة التاكسي: هل تريد توصيلة؟ نعم يا سيِّدي، أوصلني إلى الجهة الأخرى من العالم من فضلك.

ظلَّ السائق يتحدَّث طيلة الطريق، وهذه عادةٌ كنتُ أمقتها قبل اليوم. أمَّا الآن فعليه أن يتحدَّث. لقد أحببتُ ذلك بالفعل. إنَّ حديثه في الخلفيَّة مريحٌ جدًّا. تحدَّث أكثر... حاول أن تسحبني إلى السطح.

كانت العيادة في مكانٍ مختلفٍ عن مكان سكني، إلى الدرجة التي تظنُّ معها أنَّكَ في كوكبٍ آخر. بناياتٌ عاليةٌ ومزجَّجةُ الواجهات، دلفتُ إلى المنشودة بينها. كان في بهو البناية صورةٌ مُعلَّقةٌ لطبيبتي، مكتوبٌ أسفلها رقم الطابق الذي فيه عيادتها، ومواعيد عملها. أمَّا المكان فكان يغصُّ برائحة نظافة، تشبه تلك الموجودة في المستشفيات. لهذه الرائحة ذاكرة المرض، والأدوية، والكثير من الأمل الكاذب. كان عليهم أن يُضمِّخوا المكان برائحةٍ أكثر بهجة.

في الطابق قبل الأخير من البناية، فُتِحَ المصعد على مكتبٍ صغير، يجلسُ وراءه شابٌّ مبتسم، له ملامح تليق بكونه سكرتيرًا لطبيبةٍ نفسيَّة. لا شكَّ في أنَّها اختارتْه بعناية. تُجِيد هذه السيِّدة التقاط فرائسها. لا أشكُّ الآن في أنَّ أكثر «زبائنها» من النساء، فمثل هذه البداية بإمكانها أن تُخبِرَكَ بالكثير.

ـ لديَّ موعدٌ اليوم.

بنبرةٍ هادئةٍ تُشعِرُكَ بأنَّ كلَّ شيءٍ على ما يرام، قال السكرتير:

ـ بالتأكيد! دقيقةً واحدةً فقط أستاذي، وستكون بالداخل.

كان بإمكانه أن يُدخِلني مباشرة، فهي تتوقَّع مجيئي، ولكن لهذه الدقيقة مآرب أخرى، فهي تُعطي انطباعًا بأنَّ كلَّ شيءٍ مرتَّب، وأنَّ هذه الدقيقة التي سيلتزمون بها دليلٌ على مهنيَّتهم؛ فالأطبَّاء النفسيُّون سادة الترتيب، والفوضويُّون من أمثالي يتلقُّون أوَّل دروسهم بهذا الشكل. جلستُ على مقعد انتظار، والفكرة الوحيدة التي تأتي وتذهب في رأسي هي كم من الوقت أحتاج حتى تبدو غرفتي بهذا الشكل المبالَغ فيه من الترتيب؟

كما توقَّعتُ تمامًا، قبل نهاية الدقيقة بثوانٍ ظهر الشابُّ المبتسم، ليقول لي إنَّ بإمكاني الدخول.

في المكتب ـ الحقيقة أنَّ المكان أقرب إلى أن يكون مكتبًا من كونه عيادة ـ كانت الرائحة مختلفة. رائحةٌ مبهِجةٌ كتلك التي تمنَّيتُ أن تكون بالأسفل، ولكنَّها من دون ذاكرة، رائحةٌ بِكرٌ لم تتلطَّخ بعد. كان المكان خاليًا تقريبًا من الأثاث؛ قطعٌ بسيطة، ونباتات، ووعاءٌ متوسِّط الحجم فيه سمكةٌ برتقاليَّةُ اللون على طاولةٍ تفصل بين كرسيَّيْن، كانت الطبيبة تقتعد أحدهما، وفوق الطاولة أيضًا كتابَيْن فقط، وهذا مؤشِّرٌ جيِّد، فالكتب وحدها لا يمكن أن تكون أثاثًا، وأيُّ استعراضٍ بالكتب بالنسبة لي مؤشِّرٌ خَطِرٌ على وجود الكثير من الغباء والكبرياء، في أماكن العمل على وجه التحديد.

telegram @soramnqraa

ما إنْ اقتربتُ حتى وقفت، وقالت:

ـ أهلًا . . . تفضَّل تفضَّل!

ـ شكرًا لك.

الآن فقط أصبحتْ لرائحة المكتب ذاكرة: امرأةٌ في بداية الثلاثينيَّات من عمرها، في أكثر تقدير، في عينَيْها تستطيع أن تلحظ الكثير من الذكاء، ويمكنكَ أن تثق بأنَّها اختصرت من خلاله زمنًا طويلًا من الخبرة.

بحركةٍ سريعةٍ خلعتْ نظَّارتها:

ـ قد يكون حديثُكَ الآن مباشرةً أمرًا صعبًا عليك. هل تجد كلَّ شيءٍ مريحًا؟

من الجيِّد أنَّها تعي ذلك. لعلَّ تعابير وجهي، والطريقة التي جلستُ بها، فضحت الكثير. سألتُها:

ـ هل بإمكاني أن أكذب؟

ارتسمتْ على وجهها ضحكةٌ صغيرةٌ صادقة، وقالت:

ـ أعرفُ جيِّدًا أنَّ الحديث أمام الآخرين ليس مريحًا بقدر الحديث عبر الهاتف، أو من مسافةٍ آمنةٍ كفايةً وبطريقةٍ غير مباشرة. ولكن ستتفاجأ من قدرة الإنسان على التعوُّد، ستعتاد الأمر سريعًا. دعني الآن أتمنَّى ألَّا أكون قد أفسدتُ يومكَ بجعلكَ تأتي إلى هنا!

ـ أوه. . . لا! ولكنَّ الأمر لم يكن سهلًا، فهناك حرارة الشمس، والكثير من البشر الذين كان عليَّ أن أتعامل معهم، ثم نوبة هلعٍ صغيرة. . . لكن، مرَّ كلُّ شيءٍ بسلام.

ـ وكيف تشعر الآن؟ أعني هل تشعر بالراحة لوجودكَ هنا؟

ـ لا! يبدو الأمر غريبًا، وهو لا يُشبهني. أعزو هذا لسببَيْن، الأوَّل أنَّني لست معتادًا على الخروج إلى الأماكن التي لا أعرفها منذ وقتٍ طويلٍ بما فيه الكفاية، إلى درجة أنَّني اعتدتُ البقاء وحيدًا في شقَّتي. والثاني أنَّني هنا في عيادةٍ للطبِّ النفسيّ، وهذا يمثِّل اعترافًا ضمنيًّا بأنَّني أعاني من خطبٍ ما. انتبهتُ إلى هذا السبب الأخير للتوّ، وعليَّ أن أُخبِرَكِ بأنَّ كلَّ شيءٍ حصل بالصدفة؛ كنت أبحث عن شيءٍ جديدٍ كعادتي، ولكن من مكاني، من أريكتي الآمنة... ولكن أن أكون هنا على كرسيِّك... هذا أمرٌ مربكٌ وغريب، وأنا نادمٌ الآن، وأنتظر اللحظة التي أخرج فيها من هذا الباب.

سرحتِ الطبيبة قليلًا بطريقةٍ زادت من ارتباكي، ثم قالت:

ـ لا بأس! إن كان هذا ما تشعرُ به، فبإمكانكَ المغادرة في الحال. ولكن دعني أُخبركَ بأنَّ لديَّ تشخيصًا أوَّليًّا لحالتك، وأنتَ تحتاج بالفعل إلى خطَّة علاجٍ قد تنتشلكَ من...

ـ عفوًا، أظنُّ أنَّه وقتٌ مناسبٌ للمغادرة.

وخرجت.

لم ألحظ شيئًا أثناء خروجي من المكتب / العيادة، حتى الروبوت المبتسم لا أذكر جيِّدًا إنْ كان موجودًا أم لا، ذلك أنَّ الشيء الوحيد الواضح أمامي هو سؤالٌ وحيد، ظلَّ يدور حولي ويدور بي: لماذا وضعتُ نفسي في موقفٍ كهذا؟ من يريد أن يستمع إلى ترَّهاتٍ مثل ترَّهاتي؟ الجميع هشّ، الإنسان بطبعه كائنٌ

هشّ، والشيء الوحيد الذي يجب أن يحافظ عليه هو أن يتماسك! تماسك فقط، وإلّا فإنَّ هناك تشخيصًا أوَّليًّا ونهائيًّا لكلِّ حالةٍ قد تمرُّ بها في يومك. ذلك التساؤل الوحيد الواضح استطاع أن يُعيدني إلى حيث أقطن، من دون أيَّة معاناةٍ تشبه تلك التي مررتُ بها أثناء خروجي.

اغتسلتُ فورًا. شعرتُ بأنَّ ثمَّة الكثير ممَّا عَلِق بي؛ عرق، كلماتٌ وأفكارٌ لا نهاية لها، بالإضافة إلى العديد من النظرات التي كنت بحاجةٍ لأن تزول عنِّي.

بحلول المساء سكن كلُّ شيءٍ حولي، عدا صوتًا خفيفًا لموسيقى تنبعث من جهازي المحمول، وهسيس احتراق سيجارةٍ مطمئنَّة. وهناك في زاويةٍ بعيدةٍ داخل رأسي، ثمَّة انتظارٌ طال لصوت العجوز الباكي. كان لديَّ حنينٌ غريبٌ لبكائها، فافتقدتُه عندما غاب. أعترف بذلك. انتظرتُ ذاك النشيج طيلة اليوم حتى عاد، وعندها فقط استطعتُ أن أنام.

6

لم يكن البيت كما عهدتُه. بدا كلُّ شيءٍ باهتًا، بلا روح. أبي لم يعد أبي. ذبُلَتْ تلك القوَّة التي عهدتُها فيه. حاجبه الأيمن الذي ظلَّ مرفوعًا لسنواتٍ بات مُمدَّدًا كحاجبه الأيسر. استسلمتْ ذاكرته للنسيان أخيرًا، إنَّه لانتصارٌ صغيرٌ ومبكِّرٌ أن يتخلَّى الإنسان عن ذاكرته، عن شقائه وسعادته، عن كلِّ الأسماء والوجوه، وهنا تفقد الحياة متعتها في سحقه. بلا ألمٍ لن يستمتع القاتل، ملامح الضحيَّة الجامدة تقتل في خصمها حتى فكرة المحاولة.

إنَّ سقوطًا كهذا يريحُه، ولكنَّه لا يعي أنَّ كلَّ المدافع الموجَّهة نحوه استدارت نحوي. كنتُ أحاول لأيَّامٍ كثيرةٍ أن أُعلِّمه كيف يمشي. ذلك الذي كان يلفُّ بي العالم على كتفَيْه بات كطفلٍ أو رضيع، لا يعرف كيف يأكل، ولا كيف يستخدم الحمَّام لقضاء حاجته. فجأةً صار أبي أنا، وصرتُ أنا هو.

لا بدَّ أنَّه قرارٌ شجاع. لا أستطيع أن أفكِّر في أنَّه أُجبِر على

telegram @soramnqraa

ذلك. إنَّ أبي يملك من الشجاعة ما يكفي ليفعلها، ما يكفي لأن يترك كلَّ شيءٍ وراءه. هذا الإحماء الخفيف قبل ركضته الأخيرة إلى قبره، وكون الحياة أفرطتْ في صبِّ نوائبها عليه خلال العامَيْن الماضيَيْن على نحوٍ يصعب احتماله، دليلٌ على أنَّه لم يستسلم، بل اختار أن يمضي من دون ذاكرة. يا للشجاعة!. . . ما هو الخوف من دون ذاكرة؟ لا شيء! عندما يدخل الخوف من الباب، فلتقفز الذاكرة من النافذة، ولكن لا تقفز أنتَ معها، بل دع الخوف يفعل. أمَّا أنت، فقِف في وجه كلِّ شيءٍ وحدِّق. أمعن في اللاشيء. لا يوجد فيكَ سوى الخواء، لا وجود لشيءٍ تخسره. سيكون ذلك فوزكَ الأوَّل.

أذكرُ أنَّ محاولاتي الحثيثة لتنشيط ذاكرته كانت تفشل دائمًا. يا لي من ساذج!. . . لقد تشبَّثتُ بأملٍ كان عليَّ أن أتخلَّى عنه منذ نوبة نسيانه الأولى ـ لعلَّها كانت المرَّة الأخيرة التي تشبَّثتُ فيها بأملٍ كاذب ـ فهو يبدو أمامي هادئًا غير مكترث، وهذا يكفي. كان يبتسم في أحيانٍ كثيرة، ولكنِّي تيقَّنتُ في المرَّة الوحيدة التي بكى فيها أمامي أنَّه لم ينسَ أمِّي فقط، بل نسيَ حتى من يكون. أمَّا أنا فلم أنسَ أنَّه أبي ذو الحاجب الأيمن المرفوع، ولن أنسى ذلك أبدًا.

حرب والدي مختلفة. لقد كان الموت خصمه الأوَّل، لذلك فإنَّ انكساره الأوَّل هو موت أمِّي. منذ أن ماتت لم يعُد أبي كما عرفتُه. بدأ يفكِّر بطريقةٍ تشبهه لكي ينتصر. تساقطتْ ذكرياته التي تجمعه بي، وفجأةً صار يوم الجمعة كبقيَّة أيَّام الأسبوع، لا يتضوَّع برائحة خشب العود الهنديّ، وليس له مذاق البطِّيخ

المتفجِّر بالماء بعد الغداء. حتى ذلك الشعور الخشن، الذي أحسُّ به عندما أمرِّر أصابعي على رأسه، لم يعد موجودًا. حلَّ مكانه شعرٌ كثيفٌ ندر أن يجزَّه. لم يعُد يقصد الحلَّاق أكثر من مرَّةٍ في العام، أو مرَّتَيْن على الأكثر. لقد قرَّر أنَّ أفضل الانتصارات هي تلك التي تأتي بغتةً قبل أوانها، لذا خطَّط لرحيله قبل أن يموت، فليس الإنسان سوى ذاكرة. ما نحن إلَّا حيواتنا، قصصنا وكلُّ ما عرفناه ومررنا به. هذا كلُّه لم يعد موجودًا بالنسبة إلى أبي، وهو لم يعُد هنا. كلُّ ما أراه أمامي، وما ينتظره الموت، هو مجرَّد جسدٍ بلا طعمٍ ولا لون. لا أدري إن كان سيبدو شهيًّا بالنسبة للموت حتى.

أذكر أنَّهُ انتبهَ لي، قُبَيْل رحيله، ولكنَّه كان انتباهًا متوجِّسًا، ذلك أنَّه لم يكن يريد لارتحاله الأخير هذا أن يفشل. ولكنَّ فرحي بانتباهه ذاك كان غامرًا. شعرتُ بأنَّه لن ينسى كرَّةً أخرى، وشعر هو بأنَّه لن يبقى أو لا يريد البقاء، ثم عاد لنسيانه. متى يسعنا أن نترك لمن نحبُّ خيار المغادرة متى أرادوا ذلك؟ ولكنِّي لم أستطع إلَّا أن أتشبَّث، بينما هو ينسلُّ من هنا رويدًا رويدًا. أليس هذا خيارنا أيضًا، لا خيارهم هم وحدهم؟ وبالرَّغم من ذلك، لا يأبه أحد، عند الخلاص، إلَّا بنفسه. ولا يأبه أحد، على الجانب الآخر، عند الرحيل، إلَّا بأنانيَّةٍ راغبةٍ في البقاء. ولكن، منذ متى يتردَّد الآباء عند اتِّخاذ قراراتهم؟ ومنذ متى لم يعترض الأبناء عليها، ولو سرًّا؟

عليَّ أن أعترف أنَّها طريقةٌ ذكيَّة؛ أن تترك كلَّ شيء، أن تتركك أنتَ أوَّلًا، وتعيش بذاكرةٍ موقَّتةٍ ومثقوبة، تسقط منها

telegram @soramnqraa

الأشياء بعد ثوان. هناك، حيث لا يوجد ما تحبُّ أو تكره، ما يضحككَ أو يبكيك، ما يخيفكَ أو يبهجك. حيث لا احتياج ولا اكتفاء، لا أمل ولا ألم. . . بهذه الذاكرة الموقَّتة تتساوى فكرة الموت وفكرة الحياة. لا أحد يستحقُّ أكثر من ثانيةٍ أو ثانيتَيْن، لا قلق يحتاج إلى حياةٍ كاملة، ولا موت يسرق منه أحدًا، لأن لا أحد هُنا، حتى هو.

أنظر إلى جسده الممدَّد على السرير، بعد أن مسحتُ عن فمه آثار حليبٍ كنتُ أسقيه إيَّاه، وأفكِّر في أنَّ عليَّ ألَّا أخلط بين أبي وبين هذا الذي أراه الآن. هذا وقت ذاكرتي المغناطيسيَّة للحفاظ على مجده، فالعالم بالنسبة إليه انتهى، أمَّا بالنسبة إليَّ ما زال العالم أبي.

* * *

لم أبكِ. لقد فعلتُ ذلك قبل اليوم، ولم يهتزَّ في الأقدار شيء. لا أحد هنا. الأمر الوحيد الذي آسَفُ عليه أنَّ هذا كلَّه حدث بأسرع ممَّا يجب، قبل أن أصل إلى حدِّ الشبع. لكن، هل بالإمكان أن نشبع ممَّا نحبّ؟ وهل الحبُّ إلَّا جوعٌ دائم، وجذوةٌ لا يعرفُ لهيبها الشبع؟ أنا أعرفُ هذا جيِّدًا، أعرفُ أنَّ الأمور كلَّما انتهت مبكِّرًا كان الشعور بالفقد أقلّ، أقلَّ ممَّا لو أنَّها انتهت بعد فوات الأوان، وأنَّ كلَّ شعورٍ بالفَقد مقرونٌ بالضرورة بفوات الأوان. ولكنَّني جرَّبتُ الفقدَيْن؛ فقدتُ أمِّي في وقتٍ كان أبكرَ من أن أجزَع، وفقدتُ أبي متأخِّرًا عن أن أجزع، وكان الأمر موجعًا في المرَّتَيْن. ولأنَّ الفقد والوجع يحلُّ كلٌّ منهما محلَّ الآخر، فإنَّني أفتقدُ أمِّي أقلَّ ولكن بوجعٍ أكبر، وأفتقد أبي جدًّا ولكن بوجعٍ أقلّ.

7

صوتٌ عميقٌ قادمٌ من الخلف:

ـ لماذا تأخَّرت؟

ـ من أنت؟

بالكاد فتحتُ عينَيّ. أُعاني مثل هذه النوبات من الهلاوس بشكلٍ متقطِّع، وهي نوباتٌ ذات أثرٍ سيِّئ. هل تواطأتْ ـ ككلِّ شيءٍ آخر ـ مع الشكل الكارثيِّ للحياة؟ إنَّ طعم الغرابة الذي تصبغه خلفها يُشعرني بالاختلاف، ولا أعني الاختلاف بمعناه الإيجابيّ. أشعر كثيرًا بأنَّني طفرةٌ في هذا الوجود، شيءٌ كان من المفترَض أن يكون في مكانٍ آخر، ولكنَّه وصل إلى هنا عن طريق الخطأ.

أفتِّشُ في رسائل البريد الإلكترونيِّ المكتظِّ بإشعارات عمليَّات الشراء، ورسائل الطبيبة النفسيَّة. الرسالة الأخيرة منها كانت

telegram @soramnqraa

البارحة، وفيها تقول إنَّها تودُّ أن تتأكَّد من أنَّ كلَّ شيءٍ على ما يرام، وتتمنَّى أن أُعيد النظر في قراري القاضي بعدم الاستمرار في جلسات العلاج النفسيّ. أنا لا أريد أن أردَّ على هذه الرسالة، لأنَّني قد أزيد من مخاوفها بشأن حالتي النفسيَّة. لقد فقدتُ احترامي لهذا العالم منذ زمنٍ بعيد، وطاقة الاحتمال نزلتْ إلى المستوى صِفر، لذا فإنَّ هذا الاستفزاز لا يُعجبني. شعرتُ بأنَّني سلعة، ولا شيء غير ذلك، فقرَّرتُ أن أردَّ عليها بطريقتي التي لا أدري إنْ كانت تعرفها. لكنَّ هذا لا يهمّ، ستعرفها الآن:

«أهلًا! كان كتاب سيكولوجيَّة المال موجودًا في مكتبك، أو عيادتك، لا أستطيع أن أعرف على وجه الدقَّة أيُّ الكلمتَيْن أصحّ. أستطيع أن أتوصَّل، من خلال تواجد هذا الكتاب عندكِ يا سيِّدتي، إلى تشخيصٍ أوَّليٍّ للدافع الحقيقيِّ وراء هذا الإصرار، ثم بإمكاني أن أعدِّد بعض الدوافع الأخرى التي من الممكن أن تكون حقيقيَّة. مثلًا: لا يوجد مَن هو أكثر انشغالًا من طبيبٍ نفسيّ؛ فكيف له أن يطارد زبائنه؟ اللَّهمَّ إلَّا إن كانت لديه مشاكل حقيقيَّةٌ في الثقة بأنَّ عمله ذا قيمة. أو ربَّما ثمَّة دافعٌ آخر، دافعٌ قد يكون حقيقيًّا، وهو أنَّني لمحتُ في عينَيْكِ نظرة إعجاب، وأودُّ أن أقول لكِ إنَّ هذه النظرة خطيرةٌ للغاية، خاصَّةً عندما تكون بين المعالج ومريضه. لهذا لن يكون العلاج في هذه الحالة عملًا احترافيًّا يؤدِّي إلى نتيجةٍ ناجعة، بل سيزيد من التحيُّز والتعقيد. إنَّها أخلاقيَّات المهنة. لقد أطَّر العالم أخلاقيَّاتٍ تحكُم كلَّ مهنة، لكنَّكم لا تلتزمون بها في مهنتكم. أعرفُ شخصيًّا الكثير من أولئك الذين يلتزمون بأخلاقيَّات مهنتهم داخل مكاتبهم، ثم

يصبحون بأخلاقيَّاتٍ أخرى فور خروجهم من مكاتبهم، وهذا أمرٌ له مسوِّغاتٌ كثيرةٌ عندي. أمَّا أن أجد أنَّ هناك من يسحب أخلاقيَّاته الخارجيَّة، أخلاقيَّاته التي تحكم حياته اليوميَّة خارج المكتب، إلى داخل المكتب، فإنَّ هذا أمرٌ جديدٌ عليّ، وإن كنتُ أعرف أنَّ العالم لديه معايير أخلاقيَّةٌ متناقضة، حسب المكان والزمان والدين. على أيِّ حال، أنا أُقدِّر عدم الازدواجيَّة الأخلاقيَّة لديك، ولكن عليكِ أن تبدأي بفهم العالم على نحوٍ أمثل، والخطوة الأولى في هذا الاتِّجاه هي أن تبدأي بتعلُّم هذه الازدواجيَّة. ودعيني أقُل لكِ إنَّني أفكِّر جدِّيًّا في أن أبدأ عملًا جديدًا، هو أن أكون مدرِّب حياة، وهذا أقصى ما يمكنني أن أقدِّمه للعالم في أزمته الأخلاقيَّة هذه. ولكي تَصِلي إلى نتائج رائعة، عليكِ أن تتابعي جلسات تدريبٍ على الحياة بواقع جلستَيْن أسبوعيًّا. ولا تقلقي، لأنَّ هذه الجلسات ستكون من خلف الشاشة، ولا تحتاج إلى الكثير من التمارين الحركيَّة. ولكنَّ النتيجة ستفاجئك، وستلاحظين من الجلسة الرابعة ـ حتى أضمن دخلًا جيِّدًا ـ أنَّ إعجابكِ بالزبائن بدأ يخفّ. أمَّا من جهتي، وحتى أذهب إلى أبعد من ذلك، سيِّدتي الطبيبة، فأنا غير صالحٍ للحبِّ أو الإعجاب. أحبُّ أن أتعامل مع وجودي في عالمكم هذا كتمساح؛ آكل وأشرب وأضاجع، ثم أمضي إلى بركتي آمنًا، من دون أيِّ تعلُّقٍ أو التزام. وحبَّذا لو تمَّ ذلك كلُّه داخل البركة نفسها، فلا أضطرَّ إلى الخروج منها!

نعم، أنا تمساح ـ أتمنَّى ألَّا يكون ذلك مرضٌ له تشخيصٌ أوَّليّ ـ ثم إنَّكِ لستِ نوعي المفضَّل من النساء. البشر عامَّةً ليسوا

نوعي المفضَّل. وإذا كان ولا بدّ، فإنَّ تعاملي النادر مع الكائن البشريِّ ينحصر في أجزاء منه فقط، كدماغه، وأعضاءَ أخرى لا أرغب في الحديث عنها الآن. عندما تبادلتُ الحديث معك، إنَّما فعلتُ ذلك لأنَّ دماغكِ بدا شهيًّا. ربَّما لم أرغب في التعامل مع سواه، لذا لا يهمُّني وجهكِ أو قلبكِ أو بقيَّة جسدك. أتمنَّى ألَّا يُشعركِ هذا بخيبة أمل، فأنا أعرف ما يعني كلامٌ كهذا بالنسبة إلى امرأة. لكنَّني أفترض أنَّ اختصاصكِ قد أكسبك حصانةً نفسيَّةً ضدَّ هذا النوع من الخيبات، وأظنُّ أنَّ الوقت قد حان لتستخدمي تلك النظريَّات وتطبيقاتها على نفسك، ما يمنحني مساحةً كبيرةً وأريحيَّةً في الحديث.

ها أنا أستفرغ ما في داخلي مجدَّدًا. أتمنَّى ألَّا تجدي صعوبةً في أن تجلسي عند الطرف الآخر من المعادلة، وحينها فقط أتمنَّى أن يكون كلُّ شيءٍ على ما يرام».

* * *

توقَّف بكاء جارتي العجوز تدريجيًّا. أزعجني توقُّفه. أظنُّ أنَّ زوجها الكهل يستحقُّ المزيد من البكاء. لا أشكُّ في أنَّها لم تنسَ. ما زالت تشعر بغصَّةٍ وحزنٍ كبيرَيْن بالتأكيد، ولكنَّ سرعة الإنسان في نسيان من كانوا يعنون له شيئًا ما، ترتبط طرديًّا بكمِّيَّة اعتماده عليهم عاطفيًّا أو مادِّيًّا. ويصبح الموضوع مخيفًا أكثر عندما يتعلَّق بالأحبَّة، لأنَّ سرعة نسيان أحدهم لمن فقد دليلٌ صارخٌ على حجم حبِّه له. هكذا يُخيَّل لي. وإذا تعامل أحدهم مع الأمر كما يتعامل مع استثماراته الماليَّة، بحيث لا يضع كلَّ مشاعره في سلَّةٍ واحدة، بل يستعيض عنها بسلالٍ كثيرةٍ يوزِّع بيضه

عليها، يصبح الأمر أقلَّ خطرًا، لكنَّه يشبه كلَّ شيءٍ إلَّا الحبّ.

أنا متأكِّدٌ من أنَّ العجوز لم تكن تملك سوى سلَّةٍ واحدة، ولكنَّ هذا الهدوء يربكني. إنَّ الحزن الطويل بعد الفقد هو ما يمكن أن يُعوَّل عليه، فأنا لا أستطيعُ أن أحترم أولئك الذين يكملون حياتهم فورًا بعد اليوم الثالث. تجدهم يضحكون، ويذهبون إلى أعمالهم، وكأنَّ شيئًا لم يكن. في العمل كنتُ أتوقَّع تغيُّب أيِّ موظَّفٍ يموت له قريبٌ من الدرجتَيْن الأولى أو الثانية، لفترةٍ طويلة. ولكن كان حضورهم إلى العمل بعد انتهاء الإجازة النظاميَّة المقرَّرة لهم مسبقًا يُفاجئني دائمًا. وما يفاجئني أكثر هو ذاك التماسك الغريب الذي يُظهِر قوَّتهم، وهو في الحقيقة إنَّما يُظهِر هشاشتهم، فيبدون ـ بالنسبة لي، وليس للمدير التنفيذيّ ـ مقزِّزين إلى حدٍّ لا يمكن وصفه. بل أظنُّني أُبالِغ، في أحيانٍ كثيرة، في حزني على هذه الشخصيَّات وتعاطفي معها، حتى اللحظة التي أجدهم يضحكون فيها، مبالغين في إبراز عضلاتهم العاطفيَّة، وفي قول الكثير من الجُمل المُسلِّمة، من قَبيل: «هذه حال الدنيا! ماذا بأيدينا أن نفعل؟». بِيَدِكَ أن تفعل الكثير. . . مثل أن تكتفي بأن تكون إنسانًا، على الأقلّ.

ما هو الشيء الذي يجعل الإنسان آليًّا إلى هذا الحدّ؟ علينا أن نُعطي للحزن مساحته، أن نستسلم له، أن يمرَّ فينا كسيلٍ جارفٍ يُدمِّر كلَّ ما بداخلنا، حتى إذا ترك الخرابَ خلفه وأفقنا، بدأنا البناء ببطءٍ متوقِّعين خرابًا آخر. ولكنَّ البشر لا يفعلون ذلك؛ إنَّهم جيِّدون جدًّا في كبح مشاعرهم، لا سيَّما مشاعر الحزن، متناسين أنَّ ذلك السدَّ سينهار في مرحلةٍ ما، وهذا أثرٌ

telegram @soramnqraa

جانبيٌّ لطريقة عمل العالم الآن. لا وقتَ متاحًا أساسًا للبشر كي يحزنوا، لأنَّ الحزن عدوُّ الإنتاجيَّة، فهم فوق تلك الفردانيَّة التي أُجبِروا عليها، والتي تحكم عليهم بألَّا يستمدُّوا قيمتهم إلَّا من أعمالهم. هم مكتئبون، باردون، ويعانون كثيرًا من العلل النفسيَّة. وهذه العلل النفسيَّة هي أثرٌ جانبيٌّ آخر للنظام ذاته الذي لن يتعاطف مع انهياراتك، بل سيرميك، بأسرع ممَّا تتخيَّل، في يدِ حلٍّ موقَّتٍ آخر. وفي المقابل، يُفرِز هذا النظام الكثير من الأطبَّاء النفسيِّين إلى السوق، ليرمِّم بهم ما تبقَّى منكَ حتى تُكمِل بقيَّة عمرك منتِجًا. يعرف هذا النظام كيف يجرح ويداوي في وقتٍ واحد، فهو يخلق دوَّاماتٍ صغيرةً داخل دوَّامته الكبيرة لصنع المال، ليعصركَ حتى آخر قطرة.

أردتُ أن أتأكَّد من أنَّ العجوز ما زالت تحت وطأة الفقد. شعرتُ بأنَّ جاري الكهل مدينٌ لي بهذا الأمر. لعلَّه سيغفر لي كلَّ التجاهل الذي أبديته تجاهه، حين يراني أهتمُّ لدوام حضورِه بعد غيابه. اقتسمتُ مع الأرملة شيئًا من معلَّباتي. لا أدري إنْ كانت تستطيعُ أن تُدبِّر أمورها، ولكن خلال فترات يقظتي لم أسمع أيَّة جلبةٍ تدلُّ على أنَّها موجودةٌ في شقَّتها. طرقتُ باب الشقَّة. لقد أصبحتْ شقَّتها الآن، وأصبح العبء عليها بالكامل. لا أدري إنْ كانت بحاجةٍ إلى القيام بتصميم أرديةٍ عُلويَّةٍ هي الأخرى حتى تستطيع العيش لسنة، أو ربَّما أقلّ. أو يمكن أن تخيطها بيدَيْها، ما سيجعل السلعة أندر، وقانون الندرة يسمح لك بأن تضع السعر الذي تراه مناسبًا. ربَّما أقترح عليها ذلك، إذا ضمنتُ أنَّها ستعيش أكثر.

فُتِحَ الباب، فظهرت السيِّدة العجوز بوجهٍ علاه الكثير من الحزن، إلَّا أنَّ ذلك قد زادهُ وقارًا واحترامًا. تردَّدتُ أمام منظرها الهادئ في أن أمدَّ لها الكيس المملوء بالمعلَّبات، وهنا يبدأ الإنسان دائمًا بالحكم على الأشياء من منظوره، لأنَّني لو كنت مكانها لشعرتُ بأنَّ هذه الشفقة تستحقُّ أن تُركَل هي وصاحبها، حتى يصبحَ هو ومعلَّباته وشفقته مثيرين للشفقة. ولكنَّها عوضًا عن ذلك رأت الكيس في يدي فابتسمت، وضمَّت يدَيْها تحت ذقنها مباشرةً في إشارةٍ إلى أنَّها تشكر مجهودي. ثم مدَّت يُمناها إلى كتفي وربَّتت عليه مرَّتَيْن بخفَّة، وأشارت بأنَّها لا تحتاج شيئًا، وأنَّ هذا كلَّه كثيرٌ عليها، وأنَّني أحقُّ منها به. بادلتُها الابتسام، وقلتُ لها إنَّها، في حال احتاجتْ إلى أيِّ شيء، ما عليها سوى أن تطرق باب شقَّتي، وسأكون سعيدًا حينها.

أكبرتُ هذا الموقف كثيرًا. لعلَّها لم تكن امرأةً متطلِّبة، وهذا سببٌ ثانٍ يجعل من استمرار زيجتها لسنواتٍ طوالٍ أمرًا منطقيًّا بالنسبة لي. أو قد يكون الأمر كلُّه متعلِّقًا بأنَّها لم تَعِ بعد مدى قسوة الحياة التي كان الكهل يحملها وحده على كاهله.

* * *

«أهلًا! أنا سعيدةٌ برسالتكَ التي وصلتني، وذلك لأنَّني لم أضحك منذ زمنٍ طويلٍ كما ضحكتُ أثناء قراءتها. كما أنَّني أقبلُ مقايضتكَ تلك؛ أنتَ تدرِّبني على الحياة، وأنا أُعالِجكَ من عللها».

يبدو أنَّ هذه المرأة لا تُستفَزُّ بالسهولة التي توقَّعتُها، وهذا

أمرٌ يستفزُّني أنا. لكنَّها تبدو لعبةً جيِّدة، حتى الآن على الأقلّ. سيكون من المريح لي أن أقضي بعض الوقت في مبارزةٍ كهذه، عوضًا عن ألَّا أفعل شيئًا البتَّة.

«نحن متساويان الآن. لن أدفع لكِ مقابل أن أكون مريضًا يخضع لعلاجك، بينما لا يمكنني أن أضمن أنَّكِ لن تدفعي لي كمتدرِّبة. يبدو الأمر أكثر إثارةً الآن. حدِّدي موعدًا يناسب وقتكِ، ثم أخبريني به».

* * *

ـ كم من الحبِّ تحتاج حتى تُخمَد حرائقكَ؟ دعني أبدأ بالحبِّ هذه المرَّة.

ـ بل كم من الحرائق أحتاج حتى ينتهي الحبّ؟ إنَّ الحبَّ يا سيِّدتي لا يحلُّ شيئًا، إنَّه يُعقِّد الأمور أكثر. كلُّ حبٍّ يسكن المرء يجعل منه شفَّافًا أكثر من اللازم، مفضوحًا أمام الآخرين. الحبُّ يجعل الإنسان غبيًّا، أعمى، والعجيب أنَّه يعي خلال حالته هذه كلَّ الغباء الذي يُسيِّره، لكنَّه لا يهتمّ، ربَّما لأنَّ حاجة الإنسان إلى الحُبِّ حاجةٌ مُلِحَّة. ولكنَّ هذه الحاجة ليست مجرَّدةً في نهاية الأمر، بل لها وجهان إذا ما أردنا تفكيكها: الأوَّل هو أنَّ للنفس البشريَّة حاجةٌ إلى ما يؤكِّد لها دائمًا أنَّها هنا، بل إنَّه مرغوبٌ فيها أيضًا، والحبُّ وحده بإمكانه أن يُشبع هذا الفراغ في دواخلنا. وهنا سيظهر سؤالٌ آخر: إلى متى؟ ولكنَّ الأهمَّ أنَّه يفعل. أمَّا الوجه الثاني فهو مدسوسٌ داخل الوجه الأوَّل، وهو التكاثر، تمرير الجينات إلى أجيالٍ متتابعة. لذلك نحن لا نعقد هذه

المحادثة الآن لولا أنَّ الوجه الثاني غُلِّف بالأوَّل. من يريد أن يتكاثر بلا حبّ؟ في الحقيقة أنَّ هناك من يفعل. في النهاية، لا يمكننا تخيُّل ما يمكن للبشر اقترافه، وأظنُّ أنَّ الحَسَنة الوحيدة فيما لو امتنعوا عن التكاثر بلا حُبٍّ هي أنَّهم كانوا ساهموا في أن يكون عدد البشر أقلّ، أو إن تفاءلنا أكثر ربَّما يكون جنس البشر قد انقرض منذ سنواتٍ طوال. ولكنْ تخيَّلي معي الآن مجتمعًا بشريًّا بلا حبّ، والحديث طبعًا عن الحبِّ كما نعرفه اليوم: كم من الجهد سيحتاج أبناء هذا المجتمع قبل أن يصلوا إلى فكرة الإنجاب؟ أقولُ لكِ هذا وأنا مقتنعٌ به. ولكنَّ الحبَّ أقوى من نظام الإدراك لدى البشر، أي إنَّه لا يمكن تحديد متى وكيف يمكن للإنسان أن يقع في الحبّ. ثم إنَّه لا حصانة تقينا من أن نمرَّ بتجربة الحبّ. إنَّ أقصى ما يمكن أن نفعله هو تجنُّب الآخرين، وهذا لا يمنح أحدًا حصانةً كافية، وإن حصل؛ فمن يُحصِّنه من نفسه؟ ولكن هذا التجنُّب قد يؤجِّل حدوث الحبِّ لا أكثر. وعلى العكس، فإنَّ أولئك الذين يحاولون ألَّا يكونوا في مثل هذه الحالة يُجوِّعون ذلك الوحش القابع في داخلهم بالضرورة، لينهشهم في أقرب فرصةٍ تلوح له، ذلك أنَّ تأخُّر الأشياء قد يجعلنا أقلَّ حذرًا، وأكثر نهمًا بعد عمرٍ من الجوع.

على الضفَّة الأخرى، وحدهم من يكرِّرون أخطاءهم، ويعانون باستمرارٍ من الفقد، هم من يستطيعون الوقوف بين أنفسهم وتيَّار الحبِّ الجارف. لقد اختبروه بما فيه الكفاية، وبدأت أدمغتهم في تكوين أنظمة دفاعٍ ضدَّ ثاني محاولةٍ للسقوط، أو ثالث محاولةٍ في الحدِّ الأقصى. تجدهم باردين، مملِّين،

وكأنَّ دواخلهم ميِّتة، بل إنَّ دواخلهم ميِّتةٌ بالفعل. هكذا تُحصِّننا أدمغتُنا ضدَّ المزيد من الصدمات، فالأمر أشبه بالمناعة؛ كلُّ ما تحتاجه هو أن تتعرَّض للفقد مرَّةً واحدةً فقط لتعي أنَّه نتيجةٌ حتميَّةٌ في النهاية، وتبدأ عدم الاكتراث بأيِّ شيء. هذا كلُّه ليس كافيًا، فيما لو أردنا الحقّ، فالمناعة يمكنها أن تفشل أمام الزمن إذا بقيت وحدها. كيف وصلنا إلى هذه النقطة؟

ـ أكمِل، هذه فكرةٌ مهمَّةٌ برأيي.

ـ ليس هذا إلَّا مجرَّد تنظيرٍ يا سيِّدتي، وما أسهل الكلام! أستطيعُ أن أتحدَّث لساعاتٍ عن قناعاتي التي لا تكاد تنتهي، ولكن لا يمكن أن أقول لكِ إنَّني لن أفعل غيرها. أمَّا فيما يتعلَّق بالدرس، فإنَّني قبل يومَيْن فقط، يومَيْن فقط يا سيِّدتي، قابلتُ جارتي العجوز جالسةً على كرسيٍّ ومشرِّعةً باب شقَّتها على مصراعَيْه. أرادتْ أن تروِّح عن نفسها قليلًا فيما يبدو، بعد أن قضتْ أيَّامًا تكاد لا تمرُّ بين جدران الحزن، تبكي كمدًا لفقدها زوجها العجوز، ولكن يبدو أنَّها فشلت في ذلك. كان هذا واضحًا على وجهها كلَّ الوضوح، فالحزن أمرٌ يصعب الخروج منه. إنَّه مصيدة، كحقل طمي عميق، إن لم تكفَّ محاولاتكَ عن الخروج منه سيبتلعك، علمًا أنَّ حركتكَ الدائمة نفسَها تزيد من فرص ابتلاعك. لذا فإنَّه سينهشك، ولن يُبقي منكَ إلَّا شيئًا حيًّا من دون حياة. ستكونُ أشبه بدميةٍ تتحرَّكُ كيفما اتَّفقتْ أصابع الأقدار التي تلعبُ بها. أمَّا أنا فكنتُ أنظر إلى تلك العجوز لأوَّل مرَّةٍ كفاكهةٍ استوتْ أكثر من اللازم، وكلُّ ما تحتاج إليه هو قضمةٌ صغيرةٌ تُشعِرها بأنَّها قابلةٌ للاشتهاء. وأظنُّها نظرتْ نحوي كفاكهةٍ

telegram @soramnqraa

ناضجةٍ ومغرية. لقد ظننتُ كذلك أنَّها ستكون قضمةً صغيرةً فقط، مواساةً لا أكثر، ولكنْ أيًّا من ذلك لم يحدث. لقد أنقذتُها يا سيِّدتي من أن تَفسُد، وهي أنقذتْني كذلك. هذه هي المرَّة الأولى التي أجد فيها نفسي شخصًا مرغوبًا به، وأناي موجودة. لقد ظننتُ أنَّني من دون أناي، مسخًا بلا ذاتٍ راغبةٍ أو مرغوبة، وأظنُّ أنَّها المرَّة الأولى بالنسبة لها هي الأخرى. ذلك الزوج العجوز لم يكن غير تحصيل حاصل، وكأنَّه يقوم بواجبٍ كان عليه القيام به معها، أو مع غيرها. أمَّا أنا فكانت رغبتي ـ كما ظننتُ ـ هي ذاتها، ولم يكن مطلوبًا منِّي أيَّ واجب. في أحيانٍ كثيرة، يصبح أولئك الذين يأتون بلا توقُّعات، ويقبلون بكَ من دون إملاءات، ساحرين، ويصبح لوجودكَ معهم طعمٌ مختلف. في اللحظة التي وقفتُ فيها بين يدَيْها، كان كلُّ شيءٍ ذو لونٍ وشكل. لقد ذابتْ جميع الحدود التي وضعتُها سدًّا منيعًا بيني وبين الحياة. لقد أصبحت، للحظة، هي الحياة.

في الليل انتظرتُ أن أشعر بشيءٍ يشبه القرف والندم، وهذا مؤشِّري الدائم على الشكل الموقَّت للعلاقة، وأنا أختبر هذا المؤشِّر هنا للمرَّة الأولى. وبالفعل، لم يطُل شعور النشوة ذاك حتى ليلتها. لقد خار كلُّ شيءٍ عن قداسته، وبدأ يخلع عن نفسه قناعه الكاذب، كاشفًا عن حقيقة الأمر. لقد فكَّكتُ شعوري ذاك تجاهها، وشعورها تجاهي، وأظنُّ أنَّكِ تفهمين جيِّدًا أنَّ أيَّ انجذاب، ولو كان لحظيًّا تجاه الأشياء، هو متَّصلٌ بالضرورة بشيءٍ في أنفسنا. وربَّما يصير هذا الاتِّصال أوضَح كلَّما كان الانجذابُ نحو شيءٍ نستغرب في العادة انجذابنا إليه. حتى إنَّ

الغرابة في أصلها قد تُحِيل على ما يَظلُّ عالقًا في دواخلنا بلا حلّ. ولكنَّني فهمت، واستحققتُ أن أنظر في قاع روحي، أن أُشرِف على الهوَّة السحيقة فيّ.

هذا هو الدرس يا سيِّدتي، إنَّها نشوتي الأولى وثقبي الأوَّل. الآن، لا يمكنني أن أنظرَ إلى نفسي من دون أن أرى ذلك الثقب. يُخيَّل لي أنَّني مع كلِّ نزوةٍ أُثقَب ثقبًا جديدًا، حتى أُصبحَ ممتلئًا بالثقوب أكثر مع الوقت، وهذا أمرٌ لا يمكن التعايش معه فهو مقزِّزٌ جدًّا، لا سيَّما إذا كان يمكن للآخرين رؤيته. هل لديكِ فوبيا الثقوب يا سيِّدتي؟! إن كنتِ كذلك، فأنا أتمنَّى ألَّا تنظري إليَّ الآن.

نظرتْ نحو الشاشة مشدوهة، وكأنَّها تقاوم الكثير من الأسئلة، وبقيتْ لدقيقةٍ تقريبًا صامتة. لم تتكلَّم إلى أن بدا من المحرج أن يطول ذاك الصمت لثانيةٍ أخرى، حيث قالت:

ـ إنَّني أقاوم رغبةً مُلحَّةً في أن أخلع قبَّعة المتدرِّبة، وألبس قبَّعة الطبيبة النفسيَّة. هل هي مجرَّد نزوة. . . أو. . . أو هي نشوةٌ كما قلتَ؟

ـ لا يبدو أنَّ ما كان هو أكثر من مجرَّد نزوة. هذا هو الغلاف. ولكنَّ الحقيقة أنَّ هناك دافعًا خلف حدوث ذلك، ولم يكن من الممكن أن أعيه من دون أن أخوض غمار نزوةٍ كهذه؛ فالأشياء تُفكَّك بعد حدوثها، وفقط حين تختبر الأشياء تعرف لماذا أحببتَ هذا الشيء، أو لماذا كرهتَ شيئًا ثانيًا، أو لماذا لا تشعر بأيِّ شيءٍ تجاه أمرٍ آخر.

telegram @soramnqraa

ـ لا أحكم عليك، ولكن أُخبِركَ بأنَّ عليكَ التأنِّي. عليكَ ادِّخار ركضكَ للمارثون الحقيقيّ. في لحظاتٍ كثيرةٍ يكون على الإنسان أن يختبر حقيقة شعوره تجاه الأشياء، وهنا أقصد أنَّني أخاف من كون شعوركَ بالوحدة، أو الشفقة، هو ما يدفعكَ إلى ما قمتَ به، أو ربَّما يكون دافعُكَ شعورٌ عميقٌ آخر.

ـ لا شيء لديَّ لأدَّخر لأجله ركضي، ثم إنِّي لا أحبُّ الركض. أنا فقط أُنفِقُ إحساسي اللحظيَّ بالأشياء، وأتعاملُ مع العواقب بعد ذلك. هذه هي طريقتي. ولكنَّ إسرافي هذا بيَّنَ لي أنَّ الأمر أعمقُ من شفقتي ووحدتي، فأنا منذ فترةٍ طويلةٍ أركن للوحدة، وأبحثُ عنها. دعيني أكُن ميكافيليًّا هنا: الغاية تبرِّر الوسيلة. وإذا وَجد الحبُّ ـ وهذه مبالَغة، إذ إنِّي لا أتحدَّثُ هنا عن النزوات ـ طريقه نحوي، عبر كلِّ هذه الفجوات في داخلي، فلا بأس. لعلَّه أكثر نجاعةً من الطبِّ النفسيّ، بل إنَّه كذلك، على الأقلِّ بالنسبة إليّ.

أستطيعُ أن أؤكِّد أنَّ هذا يزعجكِ قليلًا كونكِ تقتاتين على الأمراض، وأقصد أنَّ الحبَّ علاجٌ فعَّالٌ تجاه الاكتئاب، ومرض ثنائي القطب، وانفصام الشخصيَّة، والذهان، وغيرها من الأمراض النفسيَّة. أستطيع أن أؤكِّد هذا من دون الاعتماد على دراساتٍ مُحكَّمَة، ولكنَّ هذه النتيجة كبيرةٌ جدًّا... عليَّ أن أؤكِّد كذلك أنَّ الفقد بإمكانه أن يملأ عيادتكِ بالكثير من المرضى، وهو النهاية الحتميَّة للحبِّ من دون شكّ. إنَّه سببٌ رئيسٌ للأمراض النفسيَّة ذاتها التي يعالجها الحبّ. شيءٌ يشبه في أساسه الجينات والبيئة ونمط الحياة، وكلَّ ما تعرَّض له الإنسان من تفاهاتٍ أثناء

طفولته وشبابه، حتى موته... ولكن هل علينا أن نترك الأشياء لأنَّنا ندرك نهايتها؟ لا أظنُّ ذلك، ولا أظنُّ هنا تعبيرٌ كبيرٌ جدًّا كذلك، لأنَّ الحبَّ والفقد انعكاسان للحياة والموت. في الحالتَيْن أنتَ لا تختار؛ لا تختار أن تولد، كما لا تختار أن تحبّ، هو قدرٌ سيلتقيكَ فجأة. وفي الحالتَيْن عليكَ أن تستغلَّ ما بينهما، إذا فطنتَ مبكِّرًا، وكنتَ محظوظًا بما فيه الكفاية، ستستمتع قبل أن تفقد، ستعيش قبل أن تموت.

أيًّا يكن الشيء الذي يجرفني نحوها، سواء أكان غائرًا أو سطحيًّا، إلَّا أنَّ اختباره لم يكن بسبب ندمي، بل كان ندمي نتيجةً لذلك الاختبار. بالمناسبة؛ اسمحي لي ألَّا أقول لكِ شيئًا آخر، فأنا لا أرغب بإظهار ثقوبي هنا، حيثُ إنَّني ما زلتُ أتعامل معها وأحاول جاهدًا ردمها. وعليكِ أن تتذكَّري أنَّني لستُ مريضكِ، كما أنَّكِ لستِ طبيبتي.

ثم دعيني أسألك: مَنْ منَّا سليمٌ أصلًا؟ أنا أجزم بأنَّ السلامة تعني أساسًا ألَّا تكون كاملًا. إنَّ الإنسان، أيَّ إنسانٍ يا سيِّدتي، سيكون عُرضةً للكثير من الألم في مرحلةٍ ما. إنَّ من طبيعة البشر الإيذاء، ومن طبيعتهم كذلك التكيُّف، ولكن لكلٍّ منهم طريقته في الصراخ. وبالحديث عن الصراخ، فإنَّ الصمت أنبل تعبيرٍ عن الألم. الهدوء في وجه الضجيج هو صراخٌ أيضًا، تعبيرٌ عن الرفض، واحتجاجٌ تأمُّليٌّ ضدَّ كلِّ الكوارث التي تنفجر فينا أو حولنا.

ليس ثمَّة إذًا من لا يُعاني من عللٍ نفسيَّة. إنَّ الإنسان وحده لديه تلك القدرة الكبيرة على كتم آلامه، ووحدهم أولئك الذين

تقبَّلوا تلك الندبات فيهم يُبدِعون في تعبيرهم خلال رحلة اتِّزانهم الداخليّ؛ أحيانًا تجدينهم يعزفون، يكتبون، يغنُّون. . . ولكن الغضب يا سيِّدتي، حذارِ من الغضب! فكما أنَّ للإنسان قدرته على أن يتكيَّف مع الظروف كلِّها، فإنَّ لهذه القدرة حدًّا معيَّنًا، حدًّا ائتمانيًّا للتحمُّل، سيتحوَّل الإنسان بعده إلى جنونٍ محض، لا يفكِّر إلَّا في أن ينتقم من كلِّ الناس حوله. ينتقم من الجميع بسبب جريرة أحدهم، أو ربَّما انتقم من عالمه الذي عرَّضهُ لكلِّ ذلك، انتقم من شكل وجوده الذي يرفضه. أتدرين ما يعني أن يرفض الإنسان شكل وجوده؟ إنَّها مرحلةٌ خطيرة، خطيرةٌ للغاية، إنَّها التجلِّي الأكثر عدوانيَّةً للغضب. يبدأ الإنسان حينها في التفكير جدِّيًّا بتغيير شكل وجوده؛ من وجودٍ مزدرٍ هامشيّ، إلى وجودٍ مركزيّ. وما هي أسهل طرق الحصول على وجودٍ مركزيّ؟ إنَّه القتل، التدمير، زرع الخوف داخل كلِّ من ازدروه يومًا، وداخل كلِّ من تسبَّب بتشوُّههم، وكلِّ من يشبههم. إنَّه الانتقام من البشريَّة جمعاء بسبب كلِّ القذارة التي تعتمل داخل البشر، واستبدال هذه القذارة بالخوف. طريقة الإنسان الوحيدة للشفاء هي الخوف من أن ينظر إليه الآخرون وكأنَّهم ينظرون إلى ما ارتكبوه واقفًا على قدمَيْن، ولكن بنظرةٍ متوجِّسةٍ هذه المرَّة. وفي أحيانٍ كثيرةٍ يطالهم الخطر هم أنفسهم.

ـ ألا ترى أنَّكَ تشعَّبتَ كثيرًا في حديثك؟ لقد بدأنا بالحبّ، والآن أنتَ تتحدَّث عن الخوف. دعني أقُل لكَ إنَّني بدأتُ أخاف، لذا لنعُد إلى ما بدأنا به أرجوك.

ارتسمتْ ابتسامةٌ خفيفةٌ على فمي وأنا أُجيبها:

ـ الخوفُ يا سيِّدتي، ذلك الذي يُشبه خوفكِ الآن منِّي، لا يمكننا الحديث عن الحبِّ من دون أن نتطرَّق إليه، فنحن ـ على عكس ما هو شائع ـ لا نشعر بالأمان مع من نحبّ. الشعور بالأمان في مثل هذه المواضع هو شعورُ واجهةٍ كاذب، لو نظرتِ خلفه جيِّدًا لوجدتِ أنَّ الخوف هو منبعه الأساس؛ الخوف من أن نخسر الآخرين. نحن نرمي بكلِّ أوراقنا أمامهم، نتجرَّد من كلِّ شيء، ونُضحِّي بكلِّ شيء، ليس لأنَّنا نشعرُ بالأمان، ولكن لأنَّنا نشعر بالخوف من أن تتكرَّر تجربةٌ فاشلة؛ ففي كلِّ حبٍّ جديدٍ خوفٌ مضاعَف، وفي كلِّ حبٍّ جديدٍ خوفٌ من أن نعود وحيدين مرَّةً أخرى. هذا أمرٌ طبيعيّ، ولكن من الجيِّد أن نفهمه. وأظنُّ أنَّ الحبَّ ليس دافعًا جيِّدًا للتكاثر وحده، كما قلتُ، بل هو ـ على اختلاف أشكاله ـ دافعٌ أكثر من ممتازٍ لأن ينفضَ الإنسان عزلته أيضًا، ويُحِيط نفسه بمن يحبُّ لينجو.

بعد نَفَسٍ عميق، بالغ الطول، سألتْ:

ـ إذا كان الأمر كذلك، لِمَ جذوة الحبِّ سريعة الانطفاء؟ لماذا يتسرَّب الملل سريعًا إلى ذلك الشعور الساخن فيبرد؟

كان سؤالها مفاجئًا، والحقيقة أنَّني لا أدري سبب ذلك على وجه التحديد، ولكنَّني متأكِّدٌ من أنَّ قولها لا يخلو من حقيقة. فكَّرتُ لوهلة، ثم أجبتُ:

ـ لا أدري على وجه التحديد لماذا يبرد ذلك الشعور بعد سنوات. إنَّه يبرد، ولكنَّه لا يموت. دعيني هنا أقُل إنَّ الجواب الأقرب إلى المنطق، في رأيي، هو أنَّ سبب ذلك هو حاجتنا إلى

التأكُّد من أنَّنا ما زلنا قادرين على جذب الآخرين، ما زال لدينا فرصٌ أخرى، وخططٌ موازية. هذه هي وظيفة الملل في حياتنا على الأقلّ؛ ما إن يتسلَّل إلينا حتى نبدأ بالبحث عن الدوبامين في مكانٍ آخر، ثم ما نلبث أن نملَّ لنبحثَ مرَّةً أخرى عن شيءٍ آخر في مكانٍ آخر. هل من الأفضل لو طوَّر الإنسان ملله في المستقبل، بحيث يكون انتقائيًّا أكثر حيال ما نشعر بالملل تجاهه؟ هنالك مخاطرةٌ كبرى في هذا، ولكن على الأقلِّ إنَّ الطريقة الحاليَّة التي تعمل بها أدمغتنا، بقدر ما تبدو سيِّئة، تبدو جيِّدةً كفايةً لكي تسمح للإنسان بأن يخوض عددًا من التجارب. ولكن، ماذا لو كان الملل مللًا من الحياة ذاتها؟

ـ هذا ما نتعامل معه نحن كأطبَّاء نفسيِّين، فمن غير الطبيعيِّ أن يملَّ الإنسان حياته، إذ إنَّ الحياة يجب ألَّا تتوقَّف عند حدثٍ معيِّن. هنالك أماكن نكون فيها تعساء، بطبيعة الحال، ولكن هنالك أماكن أخرى نكون فيها على العكس تمامًا، وهذا يخلق شيئًا من التوازن في نظرتنا نحو الحياة. إنَّ بحث الإنسان عن السعادة أمرٌ يشكِّل خطرًا على سعادته من الأساس، فالسعادة ليست موضوعًا للبحث، بل هي خليط تلك الأحداث كلِّها، بسمينها وغثِّها.

ـ مرَّةً أخرى: ما أسهل الكلام يا سيِّدتي! لقد توقَّفَتْ حياتي منذ زمن، لا يمكن لهذا الحديث أن يغيِّر شيئًا. نعم أُصدِّقك، ولكنَّني لا أستطيع، لا أحد يستطيع. الإنسان كائنٌ ازدواجيّ، هنالك ما أؤمن به ولكن لا يمكنني أن أجبر نفسي على الشعور به، وهذا الكلام الذي تقولين لا يمكن أن يفعل شيئًا. إنَّه مُخدِّرٌ

telegram @soramnqraa

موقَّت، قد يجعلني بخيرٍ لساعةٍ أو ساعتَيْن، ثم أعود لأنتكس مرَّةً أخرى. وفي الانتكاس شرٌّ أكبر، إذ لا يمكن أن ينتشلكِ المُخدِّر الموقَّت نفسُه لمدَّة ساعةٍ أو ساعتَيْن مرَّةً أخرى، لأنَّكِ تصبحين في هذه الحالة بحاجةٍ إلى جرعةٍ أكبر، ثم تحدث انتكاسةٌ أكبر وتستمرُّ حتى تنتهي. وقبل النهاية تمامًا، أجد أنَّ الطبَّ النفسيَّ من الممكن أن يكون تدخُّله هنا مناسبًا جدًّا، على الأقلِّ لا يدفع أحدهم شيئًا إلَّا عند اقتراب أمرٍ مُلِحّ، من قبيل أن يكون مُقبلًا على إنهاء حياته. وهنا فقط، من الجيِّد أن يكون هناك مُخدِّرٌ موقَّتٌ لمدَّة ساعةٍ أو ساعتَيْن.

ـ لم أتوقَّع أن تكون جلسةٌ كهذه ممتعةً إلى هذا الحدّ! لعلَّ انتفاء العلاقة المادِّيَّة بيننا جعلها تبدو أكثر واقعيَّة. وعلى طريقتكَ الساخرة، لعلِّي سأبدأ باستقبال المرضى مجَّانًا.

قلتُ ضاحكًا:

ـ سيكون من الرائع أن تختبري إلى أيَّة درجةٍ بإمكانكِ احتمال الآخرين مجَّانًا، وإلى أيَّة درجةٍ سيكون على جيبكِ أن يصبر. ولكن احذري الانتكاس، وإذا قرَّرتِ العودة عليكِ أن تلتزمي بسعر الجلسة كما كان من قبل، على الأقلّ.

* * *

اليومَ يومٌ سيِّئ. أستطيع أن أقول ذلك بشكلٍ قاطع، فلديَّ مهارة معرفة شكل اليوم، ووتيرة جريان ساعاته، بمجرَّد أن أفتح عينَيَّ لأبدأه. هذا اليوم بطيءٌ جدًّا، والأشياء الكريهة لا تكفُّ عن المرور ببطء. لا أدري إن كان هذا كلُّه داخل رأسي فقط، ولكنَّني

متأكِّدٌ من أنَّني أُعاني منه. كلُّ ما أريد ـ على نحوٍ أقلَّ تعقيدًا ـ أن تكونَ الأمور متساوية. على الوقت أن يجرَّ اللحظة بسرعةٍ ثابتة، بعيدًا عن ما فيها. سيكون هذا مفاجئًا وجيِّدًا على حدٍّ سواء. على أيَّة حال، هذا اليوم كريهٌ وبطيء. من الجيِّد أنَّني أستطيعُ معرفة ذلك، فمعرفة الأشياء لَهُوَ أمرٌ مريح، إذ إنَّ التوقُّعات كحجرِ نردٍ صُمِّم بطعمٍ صغير. فرصةٌ وحيدةٌ للانتصار، ثم تجرُّكَ إلى سلسلة خذلانٍ تَظنُّها ستتوقَّف، ولكنَّ ذلك لن يحدث أبدًا.

فكَّرتُ للحظةٍ في شكل هذا الإدمان على السعادة، هذا الركض المخيف للحصول على مزيدٍ من الدوبامين. إنَّه في حدِّ ذاته مدخلٌ لا ننتبه إلى أنَّه مُشرَّعٌ على الكآبة، إذ إنَّنا لا نُلدَغ إلَّا من حيث نأمن، ولا نُخذَل إلَّا من حيث نثق، ولا نحزن إلَّا من حيث نسعد. أمَّا ما عدا هذا، ما عدا هذا كلِّه، فهو أمرٌ لا نكترث له، وهنا يكون الجمود مفهومًا. في إحدى المرَّات، قرأتُ لأحدهم كتابًا عن السعادة، كتب في مقدِّمته: «إنَّ الحزن...». أغلقتُ الكتاب مباشرة، ولم أفتحه بعدها أبدًا. كيف لأحدهم أن يظنَّ أنَّ الحزن هو نقيضُ السعادة إلَّا لعلَّةٍ في رأسه؟ إنَّ الحزن والسعادة خطَّان يسيران نحو الوجهة ذاتها، وينطلقان من النقطة عينها، ونقيضُ كليهما التعوُّد، هكذا ببساطة. إن حزنتَ سيحميكَ التعوُّد بما يكفي ليملَّ دماغكَ الفكرة، فيبحثَ عن حزنٍ آخر يجد فيه دهشةً جديدة. إنَّ الدماغ عضوٌ دهشويّ، يعيش على مبدأ اللامتوقَّع حتى يصبح متوقَّعًا، ثم ينتظر دهشةً أخرى. وبين دهشةٍ ودهشة، يكون التعوُّد، أو بعبارةٍ أخرى الملل. وهنا، عليكَ أن

telegram @soramnqraa

تتنفَّسَ الصعداء حتى رحلتك التالية. وإن سعدتَ، فإنَّ ما يُسعدكَ سيبدو مملًّا فارغًا بعد مدَّة، ولا يصبح كافيًا لإدهاش دماغك الذي يبحثُ عن جديدٍ في كلِّ حال. وإذا اعتدتَ أسباب السعادة، صارت مملَّةً على غير هيئتها الأولى التي عرفتَها بها، فتنطلق رحلةٌ مملَّةٌ من التعوُّد اسمها الكآبة. أنا اعتدتُ الكآبة نفسها. ربَّما يكون هذا الضمور الذي بدأ يصيب دماغي ناجمًا عن كونِ هذا العضو الدهشويِّ لم يعثر، منذ زمنٍ غير يسير، على ما يدهشه.

8

عيناي شاخصتان في سقف الغرفة المظلم، وكلُّ ما أراه هو لوحة «الصرخة» لمونك. تنفُّسٌ سريعٌ غير منتظم. أُحاوِل أن أسحب شهيقًا عميقًا لأخذ كفايتي من الهواء، الذي أضحى وكأنَّه لم يعد يملأ حيِّز غرفتي الصغيرة هذه. أختنق. أفكِّر فيما لو كان التنفُّس عمليَّةً إراديَّة. إنَّه عمليَّةٌ إراديَّةٌ الآن بالفعل. يقرع قلبي بوتيرةٍ أسرع. أستطيع سماعه، بل بإمكاني الشعور به كما لو أنَّه سينفر من خافقي. هل سأموت بهذه الطريقة؟ لقد تخيَّلتُ دائمًا طرقًا أكثر تعقيدًا. أفزع. أقعد، ثم أقف على قدمَيّ، وأحاول أن أتنفَّس بعمقٍ أكثر. لا فائدة... سأموت! تخذلني رئتاي، فكلَّما ملأتُهما بصعوبةٍ كأنَّني لا أفعل، أهلع. تبدو فكرة التنفُّس إراديَّةً أكثر. أفشلُ حتى في تحكُّمي بها. ثم تنشأ فكرةٌ موازيةٌ مفادها أنَّني لا أستطيعُ البلع كذلك. أجمع ريقًا كافيًا لبلعه، ولكنَّ حنجرتي عاجزة. بالكاد أنجح، ثم أقوم بعدَّة محاولاتٍ فاشلة.

telegram @soramnqraa

سأموت الآن لا محالة، سأموت مختنقًا بفكرة. يا للسخرية!

في كلِّ مرَّةٍ يحدثُ لي هذا أظنُّ أنِّي لن أنجو، ويُفزِعني جدًّا أن تُميتَني فكرة. مع الوقت، عرفتُ كيف أُمِيتُها قبل أن تفعل، وذلك بأن أكفَّ عن استلقائي مستجديًا النوم. ربَّما هذه هي طريقة النوم في الامتناع عن المجيء، من خلال ركلي بهذه الوحشيَّة. في النوبات البسيطة، أمشي داخل شقَّتي الضيِّقة. أمَّا إذا كانت النوبات متوسِّطة، أدخل مسرعًا تحت دشٍّ من الماء البارد، ثم أمشي. وفي أصعبها، أستسلم للموت، حتى تبدو فكرة موتي مثيرةً لشفقته.

استيقظتُ قُبَيلَ رحيل الشمس بقليل. أكره هذا التوقيت. فتحتُ عينَيَّ ببطءٍ حَذِر، وحدَّقتُ نحو السقف. كنت خائفًا من أن أرى انعكاس «صرخة» مونك هناك مجدَّدًا. لم أستطع أن أتجاوز هذه اللوحة منذ أن رأيتُها للمرَّة الأولى قبل مدَّة، بالرَّغم من أنَّني لم أتأمَّلها. فيها شيءٌ مرعبٌ وصادقٌ جدًّا. على أيَّة حال، لم تكن هناك. أخذتُ نَفَسًا عميقًا لأتأكَّد من أنَّ رئتَيَّ تعملان بشكلٍ جيِّد، ونهضتُ مباشرةً لأبحث عن شيءٍ أفعله، قبل أن أترك للفكرة بابًا من فراغٍ تتسلَّل منه.

فتحتُ حاسوبي المحمول، وبدأتُ أفكِّرُ في تصميم جديد، بالرَّغم من أنَّ مبيعات التصميم الأخير جعلتْني أنسى أَن أصمِّم شيئًا حتى الآن. هذا طبيعيّ، فالنساء كائناتٌ استهلاكيَّةٌ بالضرورة، ولذلك يسعى الرجل إلى تضخيم ما في جيبه. لا أدري لماذا يعتبُ النسويُّون والنسويَّات من مقولة «الرجل لا يعيبه إلَّا جيبه»! إنَّها مقولةٌ حقيقيَّةٌ جدًّا، ومنطقيَّةٌ جدًّا، خصوصًا في

زمنٍ كهذا، فإذا سلَّمتِ المرأة بفكرة استهلاكيَّتها سلَّمتْ بهذه المقولة بالضرورة.

ما تغيَّر ليس واقعيَّة هذه المقولة، بل تعدُّد المنتجات أمام محدوديَّة ما في جيب الرجل، وأظنُّ أنَّ هذا سببٌ آخر يقفُ خلفَ موضوع المساواة. لم يعُد جيب الرجل يكفي وحده لشراء كلِّ المنتجات المعروضة للنساء، فكان عليهنَّ أن يبدأن في إعمار جيوبهنَّ كذلك.

في المستقبل، سيعمل الأطفال أيضًا استجابةً لاتِّساع الرقعة الاستهلاكيَّة. سيجد العالم ـ ودائمًا ما يفعل ـ عذرًا مناسبًا ليُعيد الأطفال إلى دائرة الكدح، أو لنُسمِّها دائرة الاستعباد الإنتاجيّ، أو الإنتاج الناعم. وهذه الكلمة ـ أي الناعم ـ هي كلمةٌ تجعل ممَّن يقرأها متسامحًا أكثر تجاه ما يقرأ. على سبيل المثال: القوَّة الناعمة. إنَّه مصطلحٌ مُربِك! كيف للقوَّة والنعومة أن تجتمعا؟ ولكن هذا ما يُطلِقه العالم على الأشياء غير الواضحة جدًّا.

أظنُّ أنَّ من الجيِّد أن أُعيد إحياء مقولة: «الرجل لا يعيبه إلَّا جيبه». سأضعها هذه المرَّة على الأردية وأكواب القهوة والقبَّعات، وفي كلِّ مكانٍ أستطيع إليه سبيلًا، حتى لو اضطررتُ أن أصل إلى هناك، إلى المكان الذي أتخيَّله في رأسي الآن. هل عليَّ أن أكتفي بها، أم أضع تصميمًا ما فوقها؟ سأكتفي بها، على الأرجح. سأجرِّب أن أستبدل نقطتَيْ حرف الياء في «يعيبه» بشنبٍ كثيف. سيصبُّ هذا الزيت على النار، ويجعل من المقولة أكثر رجولة.

* * *

ـ كم من الخسائر كان عليكَ أن تتجنَّب حتى تعيش؟

ـ بل كم عدد الخسائر التي يجب أن أتكبَّدها حتى أصبح صالحًا للعيش، يا سيِّدتي؟ إنَّ أحدًا لا يمكنه تجنُّب خسارة ما في حياةٍ كهذه، بل على العكس تمامًا. في أحيانٍ كثيرة، بقدر ما نخسر بقدر ما نعيش. في أحيانٍ كثيرة، أجد أنَّ المعنى في أن تُعاش حياةٌ ما هو أن تتأمَّل الخرابَ حولك، الانهيارات داخلك، ثم تفهم. تفهم أنَّ الحياة تشبه في جوهرها متجرًا، أيَّ متجر؛ بقدر ما تنفق ستحصل على قطعٍ أكثر عددًا أو جودة. علينا أن ننفق من قلقنا قبل أن نهدأ، ومن خوفنا قبل أن نأمن، ومن تساؤلاتنا قبل أن نفهم، ثم تلتفت عنها قانعًا. في تلك اللحظة فقط ستحترمكَ الحياة، ستحترمك ولن تبتزَّك.

أنا خسرتُ الكثير يا سيِّدتي، أنفقتُ في متجر الحياة حتى أفلستُ كما أفلس جيبي. خسرتُ والدتي، طفولتي، والدي، وأخي. هل حدَّثْتُكِ عنه؟ عن أخي؟!

في الحقيقة، أنا لا أذكر الكثير عنه. لا أذكر سوى لحظاتٍ قصيرةٍ جدًّا، أكاد أنساها. كان يكبرني بسنواتٍ لا أدري عددها على وجه التحديد، ولكن هذا لا يهمُّ الآن. لقد قرَّرَ أن ينسحبَ فجأةً عند مرض أبي. كان هشًّا، وأنا أحبُّ كلَّ ذي هشاشة. أحبُّ أولئك الذين ينسحبون عندما يكون الأمر أكبر منهم. لا يشبه هذا الأمر الاستسلام، بل على العكس، هنالك شجاعةٌ خفيَّةٌ في الانسحاب، وتقديرٌ أكبر لمدى صلابتنا أمام ما يحدث. على أيَّة حال، إنَّني لا أجد مضاضةً في أن أحبَّه، بل لقد أحببته طول الوقت. كان على أحدنا أن ينجو ليقلَّ الوجع، وآمل أنَّه فعل.

telegram @soramnqraa

ـ ولكنَّه تركك! كان من واجبه أن يبقى وأن يُحاول، ليس من أجلك، بل من أجل أبيه.

ـ لا أدري! هذه المسألة من المسائل القليلة التي لم أستطع أن أتَّخذ موقفًا تجاهها، ولعلَّ هناك كثيرًا من المسائل التي ليس من دورنا أن نبتَّ فيها. في أحيانٍ كثيرة، من المريح ألَّا نتشنَّج، وأنا هنا لم أتشنَّج البتَّة. نعم، دار السؤال في رأسي، وشعرتُ بأنَّني قابيل لفترة، وهذا شعورٌ طبيعيّ، بل «إنسانيٌّ» من الدرجة الأولى. وبما أنَّ عينَيْكِ جحظتا الآن لأنَّني قلتُ ذلك، سأعود لأُعرِّف «الإنسانيَّة»، ولكن بعد أن أنتهي من الإجابة على سؤالك. يا سيِّدتي، لقد سألتُ نفسي، فيما لو أنجبتُ في يومٍ ما، هل سيكون ذلك لأنَّني أرغبُ في وجود من أتعكَّز عليه عندما تخذلني ركبتاي؟ هذه فكرةٌ تليق بعشرة آلاف عامٍ قبل اليوم، عندما بدأ الإنسان يزرع قوته واحتاج سواعد كثيرةً لتساعده. أمَّا الآن، فنحن في عالمٍ يحتاج سواعد كثيرةً ليعمل، وأنا غير مستعدٍّ لتزويد مصانع العصرِ الحديث بكائناتٍ تحمل جيناتي، أو ربَّما فقط لأُثبت للعالم أنَّني خصب. وحتى أؤكِّد أنَّني خصبٌ جدًّا، أُنجِب أكثر. لا أدري، في الحقيقة، ما هو السبب الخفيُّ خلف رغبة الإنسان في الإنجاب، وإن كنتُ أرى السبب الثاني أكثر إنسانيَّةً ممَّا سبقه. ولكن في حال «قرَّر» أحدهم أن يُنجِب، عليه أن يتوقَّع ممَّن أنجبَ أن «يقرِّر» تركه وحيدًا في الحلبة، مُدِّخرًا قوته لصراعه الآتي، أو صراعاته الآتية التي سيواجهها مرغمًا. نحن لا ننجبُ حلفاءَ فقط ـ أعي هذا جيِّدًا ـ فهناك احتمالٌ ثانٍ وهو أن نُفرِّخ أعداء، واحتمالٌ آخر هو أن يخرج من صلبنا اللاشيء، ذلك

الإنسان المتعادل الذي لا يعنيه شيء. أنا أحترمُ الهاربين، كما أحترمُ الذين يختارون معاركهم فقط لأنَّ رجلًا ما قرَّر في لحظةٍ ما أن يثبت للآخرين مدى فحولته. وإذا كنتُ قد اخترتُ ألَّا أدَّخر من قوَّتي شيئًا لأكون في الحلبة، فإنَّ هذا لا يعني إلَّا أنَّ هناك انتصارًا صغيرًا أردتُ أن أشعر به، بينما النتيجة محسومةٌ دائمًا في تلك المواجهة، ولكن للمهزوم لكمةٌ أو لكمتان لينتشي بهما ولو لوهلة، قبل أن تُوجَّه إلى وجهه اللكمة القاضية والأخيرة، لينبطح مستسلمًا ومسلِّمًا.

ـ هممم... ما هي الإنسانيَّة إذًا؟ ألديكَ شيءٌ لا أعرفه؟

ـ كان عليَّ يا سيِّدتي أن أبتَّ في هذه المسألة بالذات. في البداية، دعيني أؤكِّد لكِ أنَّ أهمَّ السمات التي بإمكانكِ أن تفرِّقي فيها بين الإنسان والحشرة، هي مقدرة الإنسان المذهلة على أن يُعطي للمصطلحات دلالاتٍ مغايرةً عن حقيقتها، ومن أهمِّ المصطلحات التي لم تسلم من تلاعب الإنسان بدلالاتها لتتكيَّف مع فوقيَّته، هي الإنسانيَّة. في الأصل، علينا أن نعرف ما الذي يميِّز الإنسان حتى نَقُدَّ له هذا المصطلح. لو نظرتِ إلى الخلف لوجدتِ أنَّ الإنسان كان، منذ اللحظة الأولى، غيورًا، حاسدًا، وقاتلًا. إنَّ هذا كلَّه هو الدافع الرئيس لإعمار الأرض، وأعني بإعمار الأرض هنا نشأة الاقتصاد بشكلَيْه البدائيِّ والحديث. ولكن، حتى لا أُسهِب، أقول إنَّ كلَّ أمرٍ إنسانيٍّ عليه أن يكون، بالضرورة، مرادفًا للحسد، ثم القتل والدمار. لذلك لا يَصحُّ عندي أن ينسب أحدهم أعمال الخير إلى الإنسانيَّة، والصحيح أنَّ عمليَّات الاستعمار والقتل والدمار هي أعمالٌ إنسانيَّة، إذا ما

telegram @soramnqraa

تتبَّعنا سلوك الإنسان خلال السنوات الثلاثة آلافٍ الماضية، وما سبقها أيضًا.

ـ إذا كان الإنسان يقوم بأعمال خيرٍ كذلك، فمن الظلم أن نقصر هذا المصطلح على السلوك السلبيِّ للبشريَّة.

ـ يا سيِّدتي، اسمحي لي أن أؤكِّد لكِ أنَّ كلَّ الخير الذي يقدِّمه الإنسان مدفوعٌ بِشَرّ، وهنا يمكنني أن أقسم الإنسانيَّة إلى سلَّمٍ بدرجاتٍ متفاوتة، لا يمكنني أن أتخيَّل أعلاه. أمَّا من ينتمون إلى أدنى درجةٍ في سلَّم الإنسانيَّة، أولئك الذين يبحثون عن إرضاء أنفسهم، فإنَّما يبحثون عن دفقة دوبامين قد يُدمنونها فيما بعد، ولكنَّ الحقيقة أنَّ هناك أنانيَّةً خفيَّةً تقف خلف ذلك العطاء كلِّه.

ـ لم تخطر لبشرٍ ببالٍ مثل هذه السوداويَّة!

ـ سوداويَّةٌ ولكنَّها حقيقة.

* * *

لشقَّتي رائحة احتراق التبغ، ولكنَّني لا أميِّزها، إلى الدرجة التي تبدو فيها كأنَّها غير موجودةٍ من الأساس، بالرَّغم من أنَّها أشبعتِ السجَّاد، وقماش الأريكة، وحتى وسادتي التي أهرب داسًّا رأسي فيها. أنتبه إليها فقط عند خروجي من الحمَّام الضيِّق بعد دشٍّ دافئ، أو عند عودتي من خارجها بعد أن يَشُمَّ أنفي روائح أخرى. إنَّ اعتياد الإنسان على شيءٍ ما يُشبه كثيرًا اعتياد أنفي على رائحة التبغ هذه. إنَّ ضمان توافر شخصٍ ما في حياتنا يجعل منه شفَّافًا تمامًا. لقد خُلِقنا بتقنيَّة الانتباه إلى الطارئ، إلى

المستجدِّ فقط. أمَّا ما نتأكَّد من أمانه، وضمان وجوده، فهو هنا ولكنَّه غير مرئيّ.

أتذكَّر جيِّدًا أنَّني قرأتُ في مكانٍ ما مثلًا، أو حكمة، أو عبارةً لا أدري بالضبط تحت أيِّ تصنيفٍ أضعها... هي جملةٌ رائعة، تقول: «الألفة تولِّد الازدراء». لعلَّ هذه الجملة حقيقيَّةٌ بشكلٍ أو بآخر، فالنادر قيِّمٌ وثمينٌ بالضرورة، والعكس صحيح. فكَّرتُ لو أنَّ كومة الشحم يكفُّ عن تردُّده الشهريِّ عليّ، فقد يكسبه هذا قدرًا من الاحترام الذي يوازي ما بجيبه. ولكنَّه يعي بالتأكيد أنَّ ألفته تعني زيادة ما يجنيه، أمَّا الازدراء فلا يعنيه البتَّة.

لقد قرَّر كومة الشحم أن يتدحرج نحو بابي صبيحة هذا اليوم. لم أعرف أنَّني في اليوم الأوَّل من أيَّام الشهر الجديد إلَّا عندما فتحتُ الباب. نظرتُ إليه شزرًا، وألقيتُ تحيَّةً باردةً هي أقرب إلى اللعن منها إلى التحيَّة، وهممتُ بالدخول لأُحضِر له قيمة إيجار هذا الشهر. لكنّه صاح بي:

ـ اسمع... اسمع: أعي أنَّ هذا قد يؤلمك، ولكنَّ الحقيقة أنَّ التضخُّم والغلاء طالا كلَّ شيءٍ حولنا، إلَّا إيجارات شقق هذه البناية. وعليه فإنَّني أحببتُ أن أُخبرَكَ بأنَّكَ مدينٌ لي بخمسةٍ في المائة زيادةً عمَّا كنتَ تدفعهُ لي سابقًا.

شعرتُ بغضبٍ ينصبُّ في جسدي بدءًا من أسفله، ظلَّ يتصاعد إلى أن امتلأً به رأسي وغامت عيناي:

ـ اسمع أنت: أعي أنَّ ما تسمعه سيؤلمك، ولكنَّني سأقوله على أيَّة حال. إن كان هناك ما يتضخَّم الآن فهو كرهي لك. ما

علاقتي أنا بأنَّ كومة شحم سياسيَّةً بيضاء في الغرب قرَّر أن يطبعَ مالًا يزيد عن حاجة النَّاس؟! أو حتى أنَّ أمثالكَ من مدمني السُّعرات الحراريَّة ينكبُّون بشراهةٍ على أرفف البقالات وقوائم المطاعم؟! عليكَ أن تذهب وتبحث عن طريقةٍ توقف بها هذا التضخُّم الذي تعيشُ غارقًا فيه.

قلتُ هذا وأشرتُ إلى كرشه.

نظرَ نحوي مبتسمًا، وعمَّ هدوءٌ بدا في غير محلِّه. فأردفتُ وقد هدأتْ أطرافي:

ـ اسمع... من المريح أنَّني قلتُ هذا، وأظنُّكَ تعرفُ أنَّني أكرهك، بل كلُّ مَن في هذه البناية يكرهك. ولكنِّي سأدفعُ على أيَّة حال، أتعرفُ لماذا؟ لأنَّ هذا المسلخ المسمَّى بالعالم ما هو إلَّا حصيلةُ كومات شحم يملكون بنايات، ولا بدَّ أنَّهم يقفون الآن عند أبواب شققها مطالبين ساكنيها بزيادة أجرتها. وأنا ـ وهذا أمرٌ عليكَ أن تعيه ـ كنتُ أُفضِّل أن أحرق هذه الخمسة في المائة على أن أعطيكَ إيَّاها. على الأقلِّ كان سيكون من المريح أنَّني ساعدتُ شخصًا أكرهه على تخفيف وزنه!

تجهَّم قليلًا، ثم بدا أنَّه يحاول إخفاء ذلك، وقال:

ـ عمومًا، سيكون من المريح ألَّا تنتهي هذه الخمسة بالمائة إلى شراء السجائر.

أيُّ نوعٍ من البشر هذا؟ لا شكَّ بأنَّه اعتاد على مثل هذه المواجهة مرَّاتٍ ومرَّات. ولكن من المؤسف حقًّا أنَّه استدارَ بسلام. إنَّ هذا البرود لقاتلٌ بالفعل. تمنَّيتُ لو كان لي سبيلٌ

لأتأكَّد من أنَّ ما قلتُهُ قد آذاه، كما آذتني الخمسة بالمائة تمامًا.

عدتُ إلى علبة الصلصة التي يسمِّيها شقَّته. لاحظتُ رائحة التبغ، وتذكَّرتُ آخر ما قاله. ضحكتُ ضحكًا هستيريًّا، وتمنَّيتُ أن تحترق البناية، أن تحترق وأنا خارجها ـ وإن كانت احتماليَّة تواجدي خارجها ضئيلة، فيما لو حدث واحترقت ـ فأنا لا أرغب بأن أموت بهذه الطريقة، أو إنَّ رغبتي بالخروج من شكل الحياة هذا لا تعني بالضرورة أن أموت. ها هي غريزة البقاء تطلُّ سافرة، ليصبح كلُّ شيء، حتى احتجاجي هذا، مجرَّد هراءٍ لا معنى له. ولهذا ما زلت لا أفهم أولئك الذين يُقرِّرون أن يضعوا حدًّا لحيواتهم، ويمضون في قرارهم. أن يفعلوا ذلك هو المحكّ. كلُّ إنسانٍ تقريبًا فكَّر، ولو للحظة، بأن يفعل ذلك. ولكن ما إن يُحاول سحب تلك الفكرة إلى الواقع، ويرى الموت يلوح في البعيد، يبدأ بسحب خطواته للوراء. أمَّا أولئك الذين ينتقلون من الفكرة إلى الفعل، فلا أملك إلَّا أن أعترف بشجاعتهم، ولا أستطيع حتى تخيُّل شكل المأساة التي مرُّوا بها، والتي كانت مأساةً سيِّئةً بالتأكيد. وكلَّما قرأتُ خبرَ انتحار، أو شاهدتُ مقطعًا مصوَّرًا لواحد، أتمنَّى أن تكون تلك المأساة أسوأ من قفزهم إلى المجهول.

ثم ما الذي يجعل من الموت أمرًا لا يُحبِّذ الإنسان القفز إليه طوعًا أو كرهًا؟! هل هو الخوف من أن ينسحق انسحاقًا يفوق ذاك الذي يعانيه في حياته؟! لا أظنُّ ذلك، بل هو الخوف من المجهول. يُفضِّل الإنسان دائمًا ألَّا يُغيِّر أيَّ شيءٍ حوله، حتى لو كان بائسًا. بل لو سألتُ نفسي الآن إن كنتُ سأُغيِّر شيئًا واحدًا

في كلِّ ما مررت به لما فعلت، خوفًا من أن يؤدِّي أدنى تغييرٍ لحظيٍّ ـ وإن كان تغييرًا نحو الأفضل ـ إلى مزيدٍ من البؤس، وفقًا لقانون أثر الفراشة. فكرةٌ واحدةٌ فقط تتقافز في ذهني الآن: ماذا لو أطالت أمِّي مكوثها، ولو قليلًا؟!

ولكن كيف كان شكل حياتي ليكون لو فقدتُ أمِّي في موعدٍ لاحق، بعد أن تمرَّ طفولتي هادئة؟ كانت ستنجو طفولتي، لكنَّ الحياةَ هي هي. ستتَّخذ شكلها المأساويَّ ذاته، وربَّما على نحوٍ أوضَح وأعنف.

9

أشعر بارتياحٍ يغمرني، وكأنَّني تملَّصتُ من حِملٍ ثقيلٍ أوشكتُ أن أحملَه، وأوشك حَملُه أن يقضَّ ظهري. تملَّصتُ منه بسهولةٍ كنتُ لا أتوقَّعها. هذا قانون حياتي على أيَّة حال. إنَّ رأس الإنسان هو عدوُّه الأوَّل، وأقصد بذلك ما يدور داخل هذا الرأس من وهمِ توقُّعاتٍ مُبالَغٍ فيها، إلى درجة أنَّ الأشياء تأتي في غالب الأحيان أهون ممَّا يتصوَّرُها الإنسان في رأسه. ولكن لا يمكنني إنكار أنَّ توقُّع الأسوأ دائمًا قد جنَّبني الكثير من الأزمات التي كان من «الممكن» أن تحدث. وبالقدر ذاته، لا أستطيع أن أغفل عن أنَّ هناك فرصًا ضائعةً كان من الممكن أن تحدث هي الأخرى. ولكنَّ حظِّي لا يُعوَّل عليه، ولا يمكنني أن أقفز إلى تجربته، ليس لأنَّ لديَّ شيئًا هامًّا أخشى أن أخسره، ولكن لأنِّي أعرفُه جيِّدًا ولا نيَّة عندي في أن أخسرَ شيئًا لأجل ما هو أسوأ منه. إنَّ الأمر أشبه بشراء تذاكر اليانصيب بالمال القليل

الذي هو كلُّ ما تملك، والمجازفة بما اعتدتَ عليه لأجل ما لم تعتَده. أمَّا من يملك الكثير ممَّا تملك، فإنَّ مجازفته بقليلكَ لهو من المنطق بمكان. في نهاية المطاف، سيبدو الأمر وكأنَّه انتصر في الحالتَيْن؛ فهو سيُحصِّل المتعة حتى لو خسر المال.

كان لزامًا عليَّ أن أخرج من شقَّتي اليوم، لشراء بعض ما ينقصني. دسستُ الجزء العُلويَّ من جسدي داخل سترتي ذات القبَّعة، ثم رفعتُ القبَّعة ووضعتُها على رأسي، من دون أن أكترث للون السروال الذي أرتديه، وخرجت. لون السترة أسود، أقلُّ الألوان تعقيدًا فيما يخصُّ اللباس، وربَّما هنا مكمن حبِّي لهذا اللون. الحقيقة أنَّ أهمَّ ما في الحياة هو تجنُّب التعقيد، فأنا لا أذكر حقًّا أنَّني اهتممتُ بتنسيق الألوان، أو كيف سيبدو هذا اللون أو ذاك على لون بشرتي الحنطيَّة. تلك مشكلةُ عالم أوَّل، وأنا ما زلتُ عالقًا في عالمٍ بدائيٍّ جدًّا، أبحثُ في كيفيَّة أن يتَّسق شكل الحياة معي.

فور أن دفعتُ باب شقَّتي للخروج، ظهرتْ أمامي العجوز قاعدةً على كرسيٍّ خشبيٍّ قديم. شيءٌ ما في ذلك الكرسيِّ ذكَّرني بزوجها المدفون خلف رُكام من الأشياء في رأسي. ومن جلستها تلك، أظنُّ أنَّها قد تجاوزتْه تمامًا. يا للمسكين! كيف لسنواته الطويلة التي قضاها حاملًا أسطوانة الغاز ـ وأشياء أخرى يعلمها الله وحده ـ ليحافظ على استمراريَّة علاقتهما، أن تختفي، «كفصِّ ملحٍ وذاب»؟ أنا أشكُّ في أنَّه ما يزال على لسانها شيءٌ من طعم العجوز. هو إذن ليس فصَّ ملحٍ وذاب، بل اختفاءً تامًّا وناجزًا. ذلك ما توحي به جلستها المسترخية، التي لا تمتُّ إلى صورة الأرملة بِصِلة.

كانت مُشرِعةً بابها، حتى إنَّني تساءلتُ هل لشقَّتها بابٌ من الأساس. لمحتُ على وجهها نظرةً مفعمةً باللهفة، وعامرةً بالأسئلة عن معنى اختفائي كلَّ هذه المدَّة، بعد كلِّ ما حدث بيننا. أستطيعُ أن أرى كلَّ سؤالٍ يطفو فوق رأسها، ولكنَّني أطرقتُ برأسي إلى الأسفل، ومررتُ مسرعًا من أمامها، متحاشيًا خطر أن تلتقي الأعْيُن مرَّةً أخرى فأضطرَّ إلى أن أتوقَّف لأبرِّر. لم يبرِّر لي أحدٌ قطّ، ولا أشعر بأنَّ ثمَّة حاجةً للتبرير، فإنَّ كلَّ ما أحتاجه هو أن أتوقَّف عن محاولة فهم الآخرين ودوافعهم. إنَّ عمليَّة فهم الإنسان وكلِّ ما يقف خلف تصرُّفاته هي عمليَّةٌ مُضنيةٌ بالفعل، وأنا لديَّ ما يكفي من التعب. لا يليق التبرير إلَّا بأولئك الذين تعلو ملامح وجوههم نعومة غنى وترفٍ لم أملكها يومًا. كلُّ ما كان عليَّ فعلُه في مثل حالتها هذه هو أن أضيف توقُّعاتٍ سيِّئةً أخرى إلى كلِّ وجهٍ سألتقيه بعد ذلك، هكذا حتى أصبح عديم الإيمان بالآخر. تقنيَّةٌ أشبه بأن يقود المرء سيَّارةً مصفَّحة، فيصير بمقدوره أن يَضُرَّ ولا يُضَرّ.

ها قد صار لي سببٌ جديدٌ لأراجع الفكرة مرَّتَيْن، بل ألف مرَّة، قبل أن أغادر جُحري هذا. أظنَّ أنَّ عليَّ أن أدوِّن قائمةً بهذه الأسباب، وأرتِّبها حسب الأكثر احتمالًا، وأضع اقتعاد هذه العجوز عتبة بابها على رأس القائمة.

نزلتُ درجتَيْن فقط، وتوقَّفت. أدركتُ فجأةً أنَّ عليَّ أن أُنهِي الأمر. لم أعُد أتحمَّل هذه الأشياء المعلَّقة، بل إنَّني لا أتحمَّلها منذ أن عرفتُ نفسي. كانت المرَّة الأخيرة التي أنهيتُ فيها أمرًا مُعلَّقًا في مكتب الرئيس التنفيذيّ، وأشعر الآن أنَّه مرَّ وقتٌ

طويل، لذا فإنَّ كلَّ ما يتملَّكني الآن هو رغبةُ مُدمنٍ مُلِحَّةٌ في فعل ذلك مرَّةً أخرى. سحبتُ قدمَيَّ إلى أعلى، بالمسافة نفسها التي نزلتُها، حتى صارت العجوز قاعدةً بمحاذاة كتفي الأيسر. ثم أدرتُ وجهي نحو وجهها لكن ليس بشكلٍ تامّ، بل قبله بمسافةٍ تَنُمُّ عن احترامٍ مُبالَغٍ فيه لعمرها. هذه الالتفاتة كفيلةٌ وحدها بأن تُعِيد كلَّ شيءٍ إلى مكانه الصحيح مجدَّدًا. وحتى لا يكون الأمر غير كاف، قلتُ:

«إنَّني ما زلتُ أتفكَّر في ما حدث حتى اللحظة. وإن أردتِ أن أُصدِقَكِ القول، فإنَّني أتساءل كلَّ ليلةٍ أين كان عقلي حينها؟ وأيُّ جزءٍ من نفسي قرَّر أن يدسَّه؟ هذه أسئلةٌ أمضيتُ في محاولة الإجابة عليها فترة اختفائي تلك، باحثًا عمَّا أُخفِّف به شعوري بالعار. حسنًا، أنا أشعر به الآن، وهذا أمرٌ لم يحدث لي إلَّا مرَّةً أو مرَّتَيْن طيلة حياتي. ما زلتُ أشعر بعار تينك المرَّتَيْن حتى هذه اللحظة، وأحاول الفكاك من ذلك الشعور من دون جدوى. إنَّه شعورٌ عالقٌ يشبه بقعةً على جسدي قد لا يراها الآخرون، ولكنَّني أعيش محاولًا إخفاءها عنِّي أنا. أنساها أحيانًا فأكونُ أنا، ولكن ما تلبث أن تعود فأصارع لأكون أنا. إنَّ هذا الشعور المقزِّز يأتي واضحًا في مرارته، وكأنِّي في كلِّ مرَّةٍ أعيشه من جديد. أُغمِض عينَيَّ بشدَّةٍ ثم أشتمني، وأحيانًا كثيرةً إن لم ألكم الجدار فإنِّي ألكم وجهي. إلى هذه الدرجة أشعر بالعار. هل هذا كافٍ لتفهمي سبب تجنُّبي إيَّاك؟ قد يكون هذا كافيًا، ولكنَّني وجدتُ إجابةً أخرى لِما حدث، إجابةً لا تريدين سماعها بكلِّ تأكيد، رغم أنَّها الوحيدة التي بإمكانها أن تخمد أسئلتك، ولكنَّني لا أعدكِ بأنَّها

لن تُشعِل أخرى. إنَّ ما كان من الأمر لم يكن ليحدثَ لأيٍّ إنسانٍ آخر، لذا فإنَّني بحثتُ عن تبريرٍ أُنقِذ به نفسي فوجدتُني أقتلها. هل أقتلكِ معي؟ أم إنَّك ما زلتِ مقتنعةً بأنَّه لا بأس فيما كان؟ هذا ما لمحتُه على وجهكِ فور خروجي من هذا الباب. كان عليَّ أن أتوقَّفَ فقط لأنَّ هذا يزيد من بشاعة الأمر. دعيني أعترف بأنَّ مجرَّد رؤيتكِ كفيلٌ بأن يفعل ذلك، ولكن تلك النظرة التي لمحتُها بدتْ وكأنَّها تجرُّني إلى القاع أكثر. كافحتُ كثيرًا كي لا أهلع، كي أُبقِي عنقي فوقَ السطح. لستُ مستعدًّا لأن أتنازل عن تخشُّبي، أنا أتحدَّثُ إليكِ الآن دفاعًا عنه، دفاعًا عن اتِّزاني، فكلُّ ما أريده هو الحفاظ على طفوي هذا فوق سطحٍ لا يهدأ، وقاعٍ مُعتمٍ يحاول ابتلاعي. ها هي يدي ترتجف الآن، وها أنتِ تفكِّرين في ضمِّها بقوَّةٍ إلى صدركِ لتهدأ. ولكنَّني لستُ ابنكِ أيَّتها العجوز، ولن أكون كذلك. لقد كان كلُّ ما حدث محاولةً فاشلةً لشفاء الندبات في دواخلنا؛ والندبات تُنسى نعم، ولكنَّها لا تُشفى. بإمكاني الآن القول إنَّ محاولتنا الفاشلة تلك ساعدتْ في إخراج ندبتي. أصبحتُ أشعر بملمسها الغريب، أتحسَّسها وأحاول غمرها وإعادتها ـ بأوهامٍ كثيرةٍ ـ إلى مكانها السحيق، من دون جدوى. بات نسيانها أو تجاهلها مستحيلًا. أوه! هل قلتُ إنَّني لستُ ابنك؟ دعيني أؤكِّد لي، ولكِ أيضًا: أنتِ لستِ أمِّي أيَّتها العجوز، ولن تكوني يومًا كذلك».

ثم أكملتُ طريقي، منتبهًا أشدَّ الانتباه إلى خطواتي، كطفلٍ سمحتْ له أمُّه للتوِّ بالخروج من المنزل وحيدًا.

* * *

telegram @soramnqraa

لم أنتبه إلى أنَّ العالم كان «يحتفي» بالعُزَّاب يوم أمس، حتى اللحظة التي فتحتُ فيها بريدي الإلكترونيَّ صباح اليوم. «عروض يوم العُزَّاب»، عنوان البريد الأوَّل في قائمتي. لا يمكنني أن أُحسِن الظنَّ بالطبع. إنَّ هذه الشركات تُجيد اصطياد فرائسها بشكلٍ يصعب تصديقه. والعزَّاب من الرجال يحتلُّون المرتبة الثانية بشكلٍ بديهيٍّ بعد النساء، سواء أكُنَّ متزوِّجاتٍ أم عزباوات، في قائمة أعلى متوسِّط قيمةٍ لسِلال التسوُّق، وهذا فقط لو استثنيتُ نفسي من هذه الحسبة. وجبةٌ دسمةٌ أخرى تستحقُّ المحاولة.

أغلقتُ نافذة البريد الإلكترونيّ، وفتحتُ مباشرةً برنامج التصميم الذي اعتدتُ استعماله، ثم أطرقتُ أفكِّر أمام صفحةٍ بيضاء من أين يمكنني أن أدلف إلى جيوب «العُزَّاب». هل سأدخل من باب احتياجهم الفطريِّ إلى الاهتمام؟ ولكن في هذا مخاطرةٌ لا يمكن تجاهلها، حيثُ إنَّ الكثير منهم لديه من صلابة العاطفة ما قد يجعل الأمر صعبًا، نظرًا لكون السبب الرئيس لاعتزال البشرِ البشرَ هو عبورهم من خلال بعضهم بعضًا. العزف على وترٍ كهذا قد يجعل ما أقوم به مجرَّد هباء. أم تراه الهدوء حولهم؟ ولكنَّ هذا ليس ضروريًّا البتَّة. هنالك الكثير من البشر الذين نذروا حيواتهم للعمل أو العبادة، وهؤلاء يقدِّسون الهدوء كما يقدِّسون ذواتهم. أوه! كيفَ لإنسانٍ عاقلٍ أن يفعل ذلك؟ ما الذي يجعل العمل مهمًّا في الأصل، سوى أن يكون خلف باب منزلكَ أفواهٌ جائعةٌ تنتظرك. إنَّهم يستخدمون أفواه الأبناء لدفعكَ إلى العمل، وقبل هذا كلِّه يستغلُّون غرائزكَ. عليكَ أن تعمل، ثم تجمع المال، ثم تتزوَّج وتُنجِب وتكدح، ثم

تتقاعد ويدخل أبناؤكَ بدورهم سوق العمل، ثم يجمعون المال ويتزوَّجون، وهكذا حتى تقوم القيامة. وعندما تقوم، لن ينظر أحدٌ في وجه أولئك الذين نذروا أنفسهم للعمل أو العبادة فقط، فهم لم يفرِّخوا مستهلكين ولا حتى عُبَّادًا. لذلك فإنَّ هذا الأمر لا يمكن إلَّا أن يكون محض هوسٍ بالذات فقط، وإلَّا فإنَّ الكفاف سيفي بالغرض. أيُّ فكرةٍ نختار أن نؤمن بها ستنبت ذواتنا لتكون جذعًا لها.

أطلتُ التحديق من دون أن تنشأ في رأسي فكرةٌ واحدة. ربَّما يشقُّ عليَّ أن أفكِّر من خارج دائرةٍ أنتمي إليها، فأنا فردٌ من قبيلة العُزَّاب، ولكنَّني لستُ مطابقًا تمامًا لصورة العازب النموذجيَّة؛ فأنا لا أعمل، ولستُ عابدًا نذر عمره للعبادة، فأيُّ الحزبَيْن أنا؟ وأين هو الجذع الذاتيّ؟ أين نبت؟ وما الذي أفعله بحقٍّ لكي أستحقَّ أن أكون هنا؟

فتَّشتُ عن هدفٍ ما، ولكنِّي لم أجد شيئًا. إن كان ثمَّة من أمرٍ أنا على يقينٍ من أنَّني أريده، فهو أنِّي راغبٌ بأن يمرَّ كلُّ هذا الوقت بسلامٍ فقط. استسلمت. لعلِّي لن أظفر بشيءٍ هذه المرَّة من أشباه أشباهي غير المزيد من الاغتراب، فحتى هم لا يبدون مثلي تمامًا الآن، فأنا لا أتخيَّل انكفاءَهم إلَّا مؤجَّلًا، والأشياء المؤجَّلة ليست هي ما ينقص.

أغلقتُ حاسوبي المحمول، فإذا بانعكاس وجهي على مرآةٍ مستطيلةٍ مُعلَّقةٍ بجانب شاشة التلفاز. كانت آخر مرَّةٍ نظرتُ فيها عن قصدٍ إلى انعكاسي في اليوم الذي نويتُ فيه أن أقدِّم استقالتي من العمل، وهذا أحد أسباب احتراقي الوظيفيِّ ذاك، والذي لم

أنتبه إليه إلَّا متأخِّرًا؛ فأنا أحتاج إلى الكثير من التأنُّق والتأكُّد من أنَّ بقعةً واحدةً لا تُلطِّخ حذائي اللامع، وأنَّ شعرةً في رأسي لم تُقرِّر أن تقف، بدل أن تنبطح مع أخواتها. وهذا الأمر الأخير ـ وليس الآخر، بطبيعة الحال ـ هو أكثر الأمور استنزافًا لطاقتي المتواضعة عند بداية كلِّ يوم. كانت ملامح وجهي في المرآة تكاد لا تُرى. يغطِّي الشعر كلَّ شيء: حاجبان كثيفان زادا من اختفاء عينَيَّ الغائصتَيْن في هالاتٍ سوداء أصلًا. شعرٌ في كلِّ مكان؛ على يدَيّ، وظهري، وفي كلِّ مكانٍ آخر. إنَّني أشبه في صورتي المنعكسة في المرآة، بيدَيَّ المستندتَيْن إلى ركبتَيّ، حيوان الكسلان.

نبتت ابتسامةٌ خبيثةٌ على شفتَيّ، بالكاد لمحتُها، حتى إنَّني شككتُ في أنَّني ابتسمتُ فعلًا، لولا أنَّ شنبي الكثيف كذلك تمدَّد قليلًا جهة اليمين، وأفرجَ عن ثناياي التي لمعتْ لمعةً متقطِّعةً من خلال شعره الخشن. الكسلان إذًا! فهم هذا الحيوان جيِّدًا كيف عليه أن يعيش. أظنُّ أنَّ شكل حياته هو الشكل المثاليُّ الذي يجب على الإنسان أن ينتهي إليه في رحلة تطوُّره. لعلِّي استعجلتُ ذلك التطوُّر محاكيًا هذا الكائن.

فتحتُ الحاسوب المحمول مرَّةً أخرى على عَجَلٍ لأقرأ عنه. المعلومة الأولى التي ظهرت لي تُبيِّن أنَّ معدَّل نزوله إلى الأرض هو مرَّةً واحدةً كلَّ أسبوع، وهذا فقط لأنَّه مضطرٌّ لقضاء حاجته، ثم يترفَّع عن سطح الأرض متسلِّقًا أعالي الأشجار. ابتسمتُ مرَّةً أخرى، متأكِّدًا كذلك من أنَّ ابتسامتي لا تكاد تُرى. كم يُشبهني هذا الكائن؟! تمنَّيتُ فقط لو أنَّه يقضي حاجته من الأعلى، ولكن

سيكون من السهل التغاضي عن هذا الأمر مقابل أنَّه كائنٌ يُفضِّل اعتزال بني جلدته ـ ومن هم ليسوا من بني جلدته أيضًا ـ طيلة حياته، التي يمكن أن تصل إلى تسعةٍ وعشرين عامًا على أكثر تقدير. هذا يعني أنَّ أمامي قرابة ستَّة أعوام اعتبارًا من هذه اللحظة لأبقى هُنا، فيما لو كنتُ كسلانًا. كان هذا سيُسعدني حقًّا، وإن كان لا يزال أمامي وقتٌ طويل، ولكنَّه متوسِّط عمرٍ معقولٌ مقارنةً بالبشر. هل ألعن الآن مكتشف البنسيلين؟

قلبتُ العديدَ من الصفحات بحثًا عن هذا الكائن العجيب. دراساتٌ مستفيضةٌ وملاحظاتٌ سطحيَّةٌ تتحدَّث عن زُهد هذا الكائن في البقاء، حتى إنَّني صرتُ لا أدري بحقٍّ كيف بقي أصلًا حتى يومنا هذا، جُلَّ شيءٍ فيه يدفعه إلى الانقراض، إلَّا أنَّه تأخَّر حتى عن انقراضه. جُلُّ ما قرأتُه عنه كان مشتَرَكًا بيني وبينه، إلَّا أنَّه ينزل مرَّةً واحدةً في العام للتزاوج، أمَّا أنا فلا أفعل ذلك.

أصبحت الصورة أكثر وضوحًا في رأسي الآن. سأبدأ بخلطةٍ سحريَّةٍ لاستثارة عُبَّاد العمل، وعُمَّال العبادة، والكسالى من أمثالي الذين يفتخرون بكسلهم، بالإضافة إلى الكثير من أولئك الذين يُقدِّسون الأشياء. سيمنح هذا للتصميم تسويقًا عضويًّا، قد يجعل منِّي كومة شحمٍ جديدة. سيكون التصميم عبارةً عن مأدبة، ربَّما كانت مأدبة غداءٍ، لعلَّها مأدبة غداءٍ أخير. جميع المدعوِّين إلى هذه المأدبة من «العلماء»، الذين ساهموا بشكلٍ واضحٍ في إطالة عمر هذه المهزلة. يجلس هؤلاء إلى الطاولة مُحيطين بالكائن الخارق، أو «الكسلان»، كما يُطلِقون هم عليه، وقد عَلَتْ ملامح وجهه المسنود بيده اليمنى أمارات الملل بسبب الجلبة

حوله، بينما يمسك بأصابع يده اليسرى كأسًا فارغة، ربَّما تمنَّى لو كان فيها سُمًّا، إذ هي المرَّة الوحيدة التي أظنُّه كره فيها بطأَهُ الذي حشره في غرفةٍ مملوءةٍ بهذا الكمِّ من الناس. ولكنَّه يُجيد الصبر، يعرفُ جيِّدًا أنَّ النهاية حتميَّة، بينما كلُّ مَن حوله يعبث. أتخيَّل أنَّ ما يدور في رأسه أسرع من حركته، لعلَّ هذا كلُّ ما يحتاجه البشر لكسر سلسلة البقاء تلك.

فليمنغ، على سبيل المثال، يقعد مباشرةً عن يمين الكسلان. كيف لا، وهو أكثر «عالِم» ساهمَ في تأخير حدوث هذا كلِّه؟ بل إنَّه أكثر من تسبَّب في هذا التذمُّر الذي يعلو وجه الكسلان في التصميم، وأعيشه أنا في كلِّ يوم مذ عرفتُني جيِّدًا. كان عليه فور اكتشافه للبنسيلين أن يرمي به في أقرب سلَّة نفاياتٍ داخل مختبره. أظنُّ أنَّ اكتشاف القنبلة النوويَّة أكثر فائدةً لهذا العالم من اكتشاف المضادَّات الحيويَّة.

أربعون سنة! هذا هو المعدَّل الطبيعيُّ لأعمار البشر. أكثر من ذلك هو شيءٌ طارئٌ على عالم لا يحتمل كلَّ هذه الأعداد منهم. لا أدري كيف يتحمَّلون بعضهم بعضًا حتى الآن. بينما تركض بقيَّة الكائنات نحو حتفها ـ بسبب البشر ـ يركض الناس نحو إطالة معاناتهم. يمكنني أن أفهم هذا فيما لو كانت الطريق الوحيدة إلى الهاوية هي خلق الكثير من التدافع نحوها، ولكن يولَد أربعةٌ في مقابل كلِّ واحدٍ يسقط في الهاوية. كم عدد الهاويات التي نحتاجها حتى تبتلع هذا الاكتظاظ كلَّه إذًا؟

ساهم فليمنغ في معاناتي أنا شخصيًّا، عندما ساعد في زيادة معدَّل أعمار البشر. أظنُّ أنَّه لولا مساهمته تلك لما تجاوزتْ

أعدادهم ربع ربع عددهم الآن. وبكلِّ تأكيد، كنت سأبتهج لموت المدير التنفيذيِّ قبل معرفته، وكان العالم سيحتفل بنفوق كومة الشحم، بسبب كائنٍ طفيليٍّ صغيرٍ على الأغلب. ولو أسعف الوقت ذلك العالم لتأسيس أمم متَّحدة، فلربَّما كانوا سيُضيفون إلى قائمة الأيَّام الخاصَّة بهم يومًا لنفوق أكوام الشحم، وربَّما كان أمامي أيَّامٌ يمكنني عدُّها قبل أن تنتقل إليَّ عدوى ببكتيريا مجهريَّةٍ لا يمكن رؤيتها، تودي بكلِّ هذا الغباء الذي أنا عالق فيه.

ذات مرَّةٍ قرأتُ معلومةً أثارت فيَّ اليأس. تقول المعلومة إنَّ البشر سيكون بإمكانهم قريبًا العيش حتى يبلغوا مئةً وخمسين عامًا! وضعتُ يدي على رأسي حينها. بالكاد يمكن لهذا العالم أن يتنفَّس ومتوسِّط عمر الكائن البشريِّ قرابة خمسةٍ وسبعين عامًا. لا يمكنني تخيُّلُ نوع التلوُّث الذي سيغصُّ به العالم حينها. يجب على البشر، قبل أن يحدُّوا من انبعاثات الكربون، أن يحدُّوا من بعث أنفسهم، فالأمر أشبه بحلقةٍ تحتاج إلى من يكسرها. ستكون الكرة الأرضيَّة حينئذٍ مملوءةً بالمُقعدِين ومرضى الزهايمر والسكَّري والإيدز، وأمراضٍ أخرى لا يعرفها أحدٌ الآن، لأنَّها لن تظهر إلَّا بعد تجاوز الإنسان عمر المئة، وذلك لأنَّ انقسام خلايانا لا يمكن أن يستوعب استنساخًا لفترةٍ كهذه. ستتفاجأ المادَّة الوراثيَّة بأنَّها صارت هي الأخرى فأر هامستر، لا تكفُّ تتناسخ في دائرةٍ مُفرَغةٍ بلا نهاية.

أفكِّر إن كان سيشفع للعالم عندي أن يكون متوسِّط أعمار الناس أقلّ؟ هل يهمُّني حقًّا الوقت الذي عليَّ أن أمضيه واقفًا في

طابورٍ ما؟ أم أنَّني أكره اصطفافي في الطابور أصلًا؟ لعلَّه سببٌ آخر لتبجيل مخترع القنبلة الذرِّيَّة إذًا.

ها هو نيتشه جذلًا، بابتسامةٍ مَخفيَّةٍ تحت شنبه الكثيف معكوف الطرفَيْن، واضعًا يدَيْه على كتفَي الكسلان وكأنَّه ينسب الفضل لنفسه بينما لم يكن صاحب الفضل. لقد ظنَّ أنَّ الإنسان نفسه سيصبح كائنًا أعلى. لا أتخيَّل حتى كيف خطرتْ فكرةٌ كهذه في باله. لا يشفع لنيتشه شيءٌ عندي إلَّا أنَّه كان يحذِّر بني البشر دائمًا من مطاردة أمانيهم. ولكن هذا كان قبل أن أتبيَّن أنَّه نسي نفسه، فقد تمنَّى وهمًا. إنَّه الإنسان، «النهر النجس» ـ كما يحبُّ نيتشه أن يُعبِّر ـ يُجِيد اقتناص الفرص ـ كما يحاول أن يفعل هو الآن ـ بينما في الحقيقة لم يتحدَّث أحدٌ عن «الكائن الأعلى»، أو «الكسلان»، قبلي، بل لم يتبيَّن أحدٌ أنَّه الكائن الوحيد الذي كفَّ عن مطاردة أمانيه، هذا إنْ كان لديه أيٌّ منها أساسًا. الحقَّ أنْ ليسَ على الناس أن يكفُّوا عن مطاردة أمانيهم، بل أن يكفُّوا عن التمنِّي من الأساس، وبالتالي عن العيش.

في أقصى يمين التصميم، يظهرُ داروين بلحيته الكثيفة البيضاء مشدوهًا واضعًا يدَيْهِ على رأسه، كما وضعتُ يدَيَّ على رأسي تمامًا حينَ قرأتُ معلومة متوسِّط عمر الإنسان تلك، بينما يصوِّب عينَيْه مباشرةً نحو المنتصف، إلى الشيء الوحيد الذي أثبتَ أنَّ كلَّ ما قاله هو مجرَّد خطأ آخر. فالفناءُ «للأصلح»، ووحدهم الحمقاء يحسبون أنَّهم خالدون في الحياة أبدًا. ولعلَّه استطاع أن يلاحظ «لأوَّل مرَّةٍ» أنَّ هناك نظريَّةً فاتته اسمها «الانتقاص/الانقراض الذاتيّ»، وتمنَّى ـ وهنا يُكرِّر تلك الأخطاء البشريَّة الحمقاء ـ لو

نال شرف السبق في استنتاجها. وإن فعل، فلا أظنُّه سيفهم أنَّ ذلك «الكائن الأعلى» القاعد في المنتصف ستكون على يدَيْه بداية النهايات كلِّها.

بدأتُ في ملء التصميم بكائناتٍ داروينيَّةٍ من البدايات، تلك الكائنات التي نجح نظريًّا في تبيُّنها بينما فشل في توقُّع نهايتها. وحدهم العلماء الحقيقيُّون يمكنهم أن يتوقَّعوا إلى أين ستؤول الأمور. لذا، كان ثمَّة الكثير من قرود الأسترالوبيثكوس، التي قرأتُ عنها ذات مرَّة أنَّها، في عصرٍ من العصور التكوينيَّة، استطاعت بفضل رغبتها في العمل أن تُنقِذ الأيدي من بقائها حبيسة المشي. وانطلاقًا من تلك اللحظة بالضبط، بدأتْ محاولات المشي على قدمَيْن، والتوجُّه بهما إلى العمل بكلِّ تأكيد. أمَّا الأيدي، فإنَّها تحرَّرتْ لتفعل أشياء أخرى، كإنهاء المهامِّ التي يقذفها المدراء التنفيذيُّون على مكاتب البشر بعد ذلك بفترة.

خلف داروين، رسمتُ إنسان الهومو هابيليس، وهذا النوع من الضروريِّ أن يكون في تصميمٍ كهذا، فهو «بيدَيْه» لم يكتفِ بإنهاء مهمَّاتٍ روتينيَّةٍ لمديره التنفيذيّ، بل بدأ يطوِّر «أسلحةً حجريَّةً حادَّة»، يحبُّ علماء الآثار أن يُطلِقوا عليها اسم «أدوات»، وهي بالفعل كذلك عندما تقع في أيدي العالم الأوَّل، ولكنَّها أسلحةٌ بين يدَي الإنسان الأوَّل. على أيَّة حال، هنا تكمن أهمِّيَّة هذا المسخ، في تحديد العلاقة الطرديَّة بين حجم الدماغ وتنوُّع الأسلحة / الأدوات، إلى جانب أنَّه أوَّل من سنَّ سُنَّة اللعب بالنار. والآن أتساءل عن كمِّ الحرائق التي تسبَّب بها قبل

أن يُجِيد ذلك اللعب، بل يمكنني حتى أن أتخيَّل منظرها وهي تأكل الأخضر واليابس، وربَّما تكون قد أكلت نوعه أيضًا. لا يمكنني أن أستغرب منه فعلًا كهذا، فهناك أنواعٌ / مسوخٌ بأدمغةٍ أصغر يفعلون هذا الآن. ليس ذاك فحسب، بل شاهدتُ في فيلم وثائقيٍّ أنَّه استطاع تطوير طريقةٍ معيَّنةٍ للتواصل ـ ربَّما انتبه إلى أنَّ التواصل أداةٌ / سلاحٌ كذلك ـ ولا أستبعد أنَّه كان يضع سلاحه الحجريَّ أمامه. وربَّما اضطرَّ لاستخدام الحرائق حتى يعزِّز هذا التواصل فيما لو أراد الوصول إلى حلٍّ لمشكلةٍ ما.

وفي تصميم كهذا، قابلٍ لأن يستوعب الكثير، ما كان لي أن أتجاهل الهومو أريكتوس الداروينيَّ كذلك. أنا ناقمٌ على هذا الشيء جدًّا، بل إنِّي أكرهه، وإن كان بدماغٍ أكبر قليلًا من دماغ المسخ الذي سبقه، ولكنَّني ظننتُ أنَّه يستحقُّ احتفاءً في تصميمٍ كهذا، لأنَّه وفَّر علينا الكثير من الوقت حتى نتمكَّن من صنع الفأس. ولكن ما يجعله أكثر استحقاقًا ليظهر في تصميمي هذا، ويفوز بكرهي كذلك، هو أنَّه أجاد التعامل مع النار، وكان أوَّل «شيءٍ» يستخدمُها للطبخ. لا أدري بشكلٍ قاطعٍ إن كان عشاؤه الأوَّل جزءٌ من هومو أريكتوس آخر، ولكن لأنَّه أجاد الطبخ أنا ناقمٌ عليه، فهو السبب ـ حسب هذه النظريَّات كلِّها ـ في وصولنا إلى الشكل الحاليِّ من إعداد الطعام. ربَّما لو لم يشرع في الطبخ لتوقَّف كلُّ شيءٍ عند نقطةٍ بعيدة، كانت لتُجنِّبَنا الكثير من الأهوال.

من خلال ذلك الفيلم الوثائقيّ، عرفتُ أنَّ دماغ الهومو نيانتردال ـ وهو المسخ الذي سبقنا مباشرةً ـ كان أكبر حجمًا.

ومع زيادة حجم الدماغ، زادت حاجته الأساسيَّة إلى البقاء. ربَّما كان يطارد أمانًا أكبر من حاجته كذلك، إلَّا أنَّه كان مسخًا جيِّدًا في التكيُّف. والشيء الوحيد الذي يهمُّني هنا أكثر من الأسلحة التي طوَّرها هو أنَّه بدأ ينسج ملابسه، ولا أدري إن كان هذا تكيُّفًا مع برودة الطقس، أو أنَّه قرَّر أن يخفي سوءَته لأنَّ الأمر خرج عن السيطرة. لا يهمُّ هذا كلُّه الآن، ففي الحالتَيْن كلتَيْهما كان من الجيِّد أنَّنا ورثنا هذا منه. على الأقلّ، بإمكاني الآن أن أبيع أرديةً عُلويَّةً للبشر الذين أتوا بعده مباشرةً في سلسلة «التطوُّر» هذه.

يكفي هذا العدد من البشر في التصميم، وإن كان يتقافز إلى رأسي الآن كثيرٌ من المتوَّجين والمحتفى بهم. لن أضيف النيانتردال، فأنا أحفظ له فضل النزر البسيط الذي يدخل محفظتي الإلكترونيَّة بشكلٍ أسبوعيّ. لطالما لحَّ عليَّ استغرابٌ من أنَّ أدمغة البشر أصغر من أدمغة الهومو نيانتردال، كونه استدراكٌ جيِّدٌ لتصحيح المسار، وإن كان لم يكتمل هذا التصحيح بعد. وبالرَّغم من أنَّ أدمغتهم ـ أي البشر ـ أصغر بقليل، إلَّا أنَّه لا يمكنني القول إنَّ هذا الدماغ لم يساهم بدوره في تطوير أسلحة، ولكنَّه ساعد في إنشاء معاهدة منع انتشار الأسلحة النوويَّة. كما أنَّه جيِّدٌ في الموازنة بين ضرورة الحرب وإبادة أعدادٍ كبيرةٍ من البشر، وبين بسط أزمنةٍ من الازدهار ليعود مجدَّدًا لما كان يفعله، وهذا هو الخبث بعينه، ما دمتُ أحبُّ أن أُسمِّي الأشياء بمسمَّياتها. والخبث الذي طوَّرته أدمغة بني البشر لم يسبقها إليه أيُّ دماغٍ من تلك التي امتلكتها الأنواع / المسوخ السابقة.

telegram @soramnqraa

أخيرًا، هو ذا التصميم مكتملًا! ودرَّة تاج سلسلة التطوُّر هذه السوبر سبيشي، أو النوع الأعلى والتجلِّي الأكبر الذي سيتمكَّن من حسم هذا التواجد، وتفعيل معاهدة منع انتشار الأسلحة النوويَّة والكيميائيَّة والحيويَّة والناريَّة، وحتى الحجريَّة، قاعدًا في منتصف المجموعة. لا يمكنني أن أشكَّ الآن في أنَّ الكسلان هو النوع الأكثر تطوُّرًا، وإن كان بدماغ أصغر من أدمغة البشر، وهذا استدراكٌ ذكيٌّ آخر. والفرق بين هذا الاستدراك والاستدراك الأوَّل أنَّ هذا النوع سيحافظ في هذه المرَّة على بقاءٍ موقَّت، من دون خبثٍ أو لعبٍ بالنار، كما سيحافظ على هدوئه، ويبدأ في التركيز فقط على محاولاته الجادَّة لإنهاء هذا التواجد الفوضويّ، وبالتالي سيحوز فضل كتابة كلمة النهاية في آخر الشريط.

مددتُ يدي ببطءٍ لأريحها بعد أن انتهيت، وانتبهتُ فجأةً إلى هذا البطء، ثم فكَّرتُ مليًّا ـ وببطءٍ مملٍّ كذلك ـ في أنَّني أريد أن أتناول علبة الماء من على المنضدة، التي تفصل بين الأريكة والتلفاز. كان على الفكرة أن تختمر في رأسي لفترةٍ أكثر من كافيةٍ ككسلانٍ حقيقيّ. إنَّه لَاختبارٌ حقيقيٌّ إذا ما كان الأمرُ متعلِّقًا بالصبر. حاولتُ تجاهل ساعة حاسوبي المحمول، ذاك أنَّ الاختبار الثاني، بعد أن تتجاوز اختبار الصبر الذي يؤهِّلك إلى أن تتحوَّل إلى كسلان، هو أن تتجاهل الوقت، وتكون ساعتكَ الوحيدة وبوصلتكَ هي أنت.

انزلقتُ عن أريكتي بعد برهةٍ بحركةٍ بطيئة، وبدأتُ أسحبُ جسدي الذي بدا أثقل ممَّا ظننتُ على الأرضيَّة، كما لو أنَّني وصلتُ إلى آخر مسارات التطوُّر البشريّ، حيث يصبح الإنسان

كسلانًا كاملًا. لا أدري كم من الوقتِ احتجتُ حتى أصلَ بجسدي الملتصق جزئيًّا بالأرضِ إلى المنضدة. بدت الشقَّة واسعةً على غير العادة، وكلُّ الأشياء بعيدة المنال. رفعتُ يدي نحو علبة الماء بحذر لصّ، والتقطتُها بهدوءٍ تامّ. وبالبطء ذاته وصلت العلبة إلى فمي، فشربت.

10

«تمَّ تعليق المبلغ المتوفِّر في المحفظة، إلى حين التحقُّق من البلاغ المقدَّم ضدَّ حسابك».

هؤلاء السُّرَّاق! لا يمكنني أن أُحسِن الظنَّ برسالةٍ كهذه، أتت بعد أن حقَّق تصميم الغداء الأخير مبيعاتٍ في أسبوعٍ واحدٍ تفوق ضعفَي المبلغ الذي حقَّقتُه مذ بدأت. والحقُّ أنَّ هذا هو المقلق بالنسبة لهم. لا أظنُّهم انتبهوا إليَّ من قبل. فما الاستفزاز الذي يمكن لحيوان الكسلان أن يقدحه؟ اللعنة! والله إنَّ هذا العالم لا يريد منِّي أن أبرح مكاني، بل أن أبقى حيث أنا. إنَّه وقتٌ مناسبٌ لسيجارة. قد لا تصمد علبة السجائر الأخيرة هذه ليومٍ آخر، ولن يصمد جيبي بدوره أكثر من يومَيْن. أخرجتُ قدَّاحتي من جوف العلبة، وبدأتُ أقدح قدحًا متتاليًا. في كلِّ مرَّةٍ كانت شرارات القدَّاحة تتطايرُ من غير أن يتَّقد اللهب، وفي كلِّ مرَّةٍ كنت أقدحُ بلا استسلام، على أمل أن تنفثَ لهبها المتواصل

telegram @soramnqraa

وأن يبقى مُتَّقدًا. حتى الآن لا شيء غير شرارةٍ تجرُّ خلفها شرارةً أصغر، ثم شيئًا فشيئًا يصبح لا شيء سوى صوت قدحة بَكَرة، وخطَّيْن أحمرَيْن في إبهامي.

«بإمكانك تقديم التِماسٍ عبر الضغط على الرابط أدناه».

التفتُّ حولي باحثًا عن علبة ثقابٍ كانت هنا قبل أسبوع، أو أسبوعَيْن، أو أكثر. لا أدري! كانت علبة الثقاب هنا، ولكنَّ العثور على الأشياء يصبح صعبًا عند الحاجة إليها. فتحتُ كلَّ دُرجٍ في الدولاب المركون في الجهة اليسرى من أريكة الصالة، حتى لم يعد بإمكاني المرور. هل أقفز؟ اللعنة! هذا العالم أكبر من احتمالي.

«عند تقديم طلب الالتِماس، قد يستغرق الردُّ عليه وقتًا يصل إلى خمسة أيَّام عمل».

أعدتُ نثر كلِّ ملابسي المنثورة أصلًا، وبحثتُ في كلِّ جيبٍ عن علبة ثقابي، التي كانت هنا قبل أسبوعٍ أو أسبوعَيْن، ليس أكثر. نبشتُ الأريكة، وقلبتُ الطاولة رأسًا على عقب. كأنَّ شقَّتي لم تدخلها يومًا علبة ثقاب!

«شكرًا لاختياركَ لنا. نتمنَّى أن نكون دائمًا خيارَك الأوَّل».

سأكفُّ عن هذا. حاولتُ أن أتنفَّسَ ببطء. سأشتري علبة أعواد ثقابٍ جديدة. خرجتُ بأنفاسٍ بدت وكأنَّها لا تحمل الأوكسجين البتَّة. استنشقتُها على أيَّة حال. خرجتُ هذه المرَّة من دون أن ألبس السترة، لأنَّ فكرة البحث عنها وسط ملابسي المتناثرة في كلِّ مكانٍ كانت تزيد من اشمئزازي. هنالك نظريَّةٌ

تقول إنَّ عليكَ أن تُقلِّل الاحتكاك لتستطيع القيام بالأشياء. فمثلًا كان عليَّ دائمًا أن أعلِّق السترة على المشجب خلف الباب، ما يجعل البحث عنها أسهل من رميها في كلِّ مرَّةٍ وسط هذه الكومة الكبيرة من الملابس. ولكنَّني لستُ ذلك الشخص، بل من الأفضل أن أجعل الأمر أكثر صعوبةً في كلِّ مرَّةٍ أجدني مدفوعًا فيها نحو ذلك العالم الخارجيّ. على أيَّة حال، قد يكون هذا هو السبب الوحيد الذي قد يدفعني إلى ترك السجائر، وليس سببًا آخر كأمراض القلب والرئة. بل كان سيكون الأمر أكثر رعبًا لو استبدلوا صور الأعضاء المشوَّهة على علب السجائر بصورة باب! فقط صورة بابٍ ستكون كفيلةً بتذكيري بأنَّ ما أنا بصدد شرائه هو ما يُجبرني على دفع باب شقَّتي هذه، والخروج منها. دفعتُ الباب بأنفاسٍ متسارعةٍ وخطى بطيئة.

ها هي الجارة العجوز قاعدةً أمامي مباشرة، تنظر نحوي نظرةً لا تختلف أبدًا عن نظرتها السابقة تلك. ابتسمتُ لها هذه المرَّة، ثم رفعتُ سيجارتي أمامها، وقلتُ بنبرةٍ مرتجفةٍ وغاضبة:

«أنا بحاجةٍ إلى علبة أعواد ثقابٍ فقط، بل إلى عود ثقابٍ وحيدٍ لأُشعِل هذه الملعونة. لقد كانت العلبة أمامي طول الوقت، ولكنَّني عندما أردتُها بشدَّةٍ لم أجدها هناك. متى يكفُّ هذا العالم عن العبث معي؟».

رفعتْ يدَيْها أن لا بأس، عليكَ أن تهدأ وسأُحضِر لكَ واحدة. ثم دلفتْ إلى شقَّتها، وأظنُّها فعلت ذلك بشكلٍ متردِّد، كأنَّها لم تدخلها منذ مدَّة.

عجَّت المساحة الفاصلة بين بابَيْنا برائحة المستكا والريحان والبُنِّ المحمَّص، وأصبحت كأنَّها جزءٌ من شقَّتها. والآن بدأتْ هذه الروائح تتركَّز شيئًا فشيئًا، علَّ تكدُّس حيِّزها الضخم داخل الشقَّة مرَّةً أخرى سمح بخروج هذه الروائح. انتظرتُ طويلًا. لعلَّها هي الأخرى لم تجد علبة الثقاب! طرقتُ الباب طرقتَيْن خفيفتَيْن، لم يُجِب أحد. ثم تذكَّرتُ ما بأذنَيْها من علَّة، وتردَّدتُ في أمر اللحاق بها، فللبيوت حُرمة، وإن كان لحُرمة بيتها قدرًا أقلَّ عندي، فالولوج إليه لن يكون الولوج الأوَّل، كما أنَّ بابه لا يكادُ يُغلَق. ثم إنَّها مجرَّد شقَّة، والشقَّة في حرمتها أقلُّ بدرجةٍ من حرمة البيت. هذا ما أشعرُ به في كلِّ مرَّةٍ يطرق فيها بابي كومة الشحم، أشعر وكأنَّه يطرق على رأسي بمفاصل أصابعه نصف المعسوفة. لولا ما اكتنزتْه تلك الأصابع من شحوم لكانت تلك الطرقات أكثر حدَّةً في إزعاجها، وربَّما كان ردُّ فعلي أكثر حدَّةً كذلك. قرَّرتُ أن أدخلَ خلفها لأتبيَّن أمر تأخُّرها، وإن لم تجد ما طمأنتني بوجوده فإنَّني سأشكر سعيها، وأعود إلى خطَّة الشراء التي خرجتُ لأجلها منذ البداية.

كان الممرُّ مظلمًا، وقطعة القماش الفاصلة بين مدخل الشقَّة حيث أقف والصالة بالكاد تسمح بمرور خيطَيْن دقيقَيْن من الضوء، عبر الفلجة الطوليَّة بينها وبين الجدارَيْن اللذين يحدَّان عرضها. غرستُ أصابعي بخيط الضوء النافذ من يسار الفلجة، وجمعتُ قطعة القماش بيدي مُبعِدًا إيَّاها من طريقي، ومررتُ نحو الصالة المشعَّة بالضوء. كانت صور العجوز ذات الإطار المذهَّب ما زالت في مكانها. شعرتُ بارتياحٍ لأنَّها لم تُرمَ بعد، وإن كان قد

telegram @soramnqraa

جال ببالي أنَّها تفترش باب الشقَّة لأنَّ هذه الصور لا تزال في الداخل.

خرجتِ العجوز من إحدى الغرف إلى الصالة. فجأةً فاحَت في المكان رائحةٌ زهريَّةٌ نفَّاذة، لا يمكن لذاكرتي أن تخطئها أبدًا.

«للشقَّة رائحة موتٍ آتٍ».

أثناء غوصي في صور العجوز، لم أكن قد انتبهتُ لوجودها خلفي، حتى حطَّت يدها المتجعِّدة فوق كتفي. التفتُّ نحو كتفي الممسوسة، ثم رفعتُ عينَيَّ إليها. انسلَّتْ يدها من فوق كتفي بهدوءٍ دافئ. كان على وجهها البيضاويِّ ابتسامةٌ صغيرةٌ سخيفة، تكفي لتغوص بعينَيْها المُكحَّلتَيْن داخل وجنتَيْها.

أشحتُ بنظري عنها نحو الأسفل، فإذا بها تحمل بيدها الأخرى علبة أعواد الثقاب. بصلابةِ متوجِّسٍ مُختلَقَةٍ وضعتُ السيجارة في فمي، ثم مددتُ إليها راحة يميني لتُعطيني ما بيدها حتى أذهب. دسَّتْ يدها خلف ظهرها، ثم بنصف خطوةٍ واضحةٍ اقتربتْ منِّي، حتى تخلَّل زفيرُها شعر شنبي الخشن، وأحسستُ بحرارة زفيرها تنقسم على السيجارة المعلَّقة بفمي. أغمضتُ عينَيَّ جرَّاء غضبٍ بدأ يعتصرني، إلَّا أنَّ هذا جعل من شعوري بأنفاسها، التي تتمدَّد على وجهي لحظة التصاقها به في كلِّ مرَّة، أكثر كثافة. وكان يتكدَّس المزيد من الغضب في داخلي عند كلِّ زفير جديد.

بسرعةِ من بَرَقتْ في ذهنه فكرةٌ فتحتُ عينَيّ، وقبل أن ألحظ وجهها مباشرةً لثمتُ بيدي فمها. ثم بجسدي النحيل، وبجهدٍ

متواضعٍ جدًّا، دفعتُها نحو الجدار الذي ينتصب خلفها بمسافةٍ ليست بعيدة، حتى اصطدم ظهرها به. كانت مستسلمةً بالكُلِّيَّة، وأظنُّها فقدتْ انتباهها للأخطار منذ زمن، أو لعلَّها لا تدري ما هو الخطر من الأساس، فلم يحدث أنْ واجهتْ شيئًا قد يحفِّز ذلك الجزء من دماغها قبل هذه اللحظة. وحدهم الذين اعتادوا الخوف ينجون عندما تُحدِق بهم الأخطار، وهذه الشمطاء الساذجة تتوقَّع دائمًا أنَّ كلَّ شيءٍ سيكون على ما يرام. لا عجب في هذا، فكلُّ شيءٍ كان على عاتق ذاك المحصور وجوده في الأُطُر المعلَّقة في كلِّ جزءٍ من أجزاء هذه الشقَّة. ولأجل أن أستفزَّها لتعي ما يمكنني أن أُقدِم عليه من أذى، أنزلتُ يدي إلى عنقها المترهِّل، وبدأتُ أعصره بشكلٍ تدريجيٍّ مُختَبِرًا هلعها، لأتبيَّن عند أيِّ شدَّةٍ سيستجيب دماغها بتفعيل حالة الاستنفار وكلِّ ما يترتَّب عليها.

أخيرًا، قبل أن أكسرَ بلعومها بقليل، بدأت ابتسامتها الصغيرة السخيفة تلك بالاختفاء شيئًا فشيئًا، ثم زمَّت شفتَيْها بخيبةٍ واضحةٍ لم تستطع تمالكها، حين بدأت أنفاسها المحزوزة ـ التي يمكنني تحسُّس عبورها من تحت يدي ـ تتسارع. ومع كلِّ تسارعِ ألحظه كنتُ أضغط بشدَّةٍ أكبر، حتى أضحى بالكاد يمكنُ لخيطٍ نَفَسٍ وحيدٍ أن يعبر حلقها. حينها تعلَّقتْ يداها كلتاهما بساعدي، مُحاوِلةً الفُكاك. هذا هو شعوري في كلِّ مرَّةٍ كنتُ أختنقُ فيها عند الباب. الآن بإمكانها أن تفهم ذلك. كان على الأمر أن يحدثَ في وقتٍ أبكر من الآن، قبل أن تساومني على علبة ثقابٍ نصف فارغة. نظرتُ في عينَيْها الجاحظتَيْن. بدتا كما لو أنَّهما تتشبَّثان

telegram @soramnqraa

بشيءٍ ما لا يمكنني ملاحظته. ثم بصقتُ سيجارتي في وجهها، وبيدي الأخرى أحطتُ المتبقِّي من عنقها بشكلٍ سمح لإبهامَيَّ أن يعتليا بعضهما البعض عند بلعومها مباشرة. بدت عيناها كما لو أنَّهما جاحظتَيْن من دون أن تتشبَّثا بشيء. حاولتْ أن تبلع ريقها، ولكنَّها كانت تفشل في كلِّ مرَّة، أمَّا يداها فكانتا متشبِّثتان بساعدي. تحسَّستُ حلقات بلعومها العظميَّة بإبهامي الملتصق مباشرةً به، وعصرتُه حتى خِلتُ أن لا شيء بين يدَيّ. فجأةً ارتختْ قبضتا يدَيْها عن ساعدي، وانسلَّ كيس جسدها كاملًا وسقط فوق الأرضيَّة، فبدت فارغةً كما اعتادت أن تكون، وهادئةً جدًّا كما لم تكُن من قبل.

مِلتُ بجذعي لالتقطَ علبة أعواد الثقاب، التي سقطتْ قبل سقوط المرأة بقليل. ثم التقطتُ سيجارتي، التي نَفَرتْ بعد أن ارتدَّتْ عن وجهها إلى مكانٍ أبعد قليلًا. فكَّرتُ في أنِّي تأخَّرتُ كثيرًا، ولكنَّ التوقيت مناسبٌ أكثر الآن، وإن كان متأخِّرًا.

جلستُ على الكرسيِّ الوحيد في الصالة. كان مصنوعًا من الخشب، وقديمًا جدًّا، حتى إنَّني جلستُ على طرفه خوف انهيار قوائمه بي. دفعتُ درج علبة أعواد الثقاب إلى الأعلى، فكشف عن بضعة أعوادٍ ليس أكثر. وضعتُ السيجارة في فمي، وكشطتُ الرأس الكرويَّ لعود الثقاب على الشريط الملصوق بجانب العلبة لأُشعِلَه. حبستُ النَّفَس الأوَّل لبرهةٍ وكأنَّه النَّفَس الأخير، حتى شعرتُ بدفقةٍ مُرِيحةٍ من النيكوتين سَرَت في رأسي. نفثتُ النَّفَس المحبوس محمَّلًا بالقلق، وحدَّقتُ في المنظر الواسع أمامي.

على يميني جثَّةٌ هامدةٌ بعينَيْن ما زالتا جاحظتَيْن، وساقَيْن

قويَّتَيْن متخشِّبَتَيْن إلى الدرجة التي تنفع معها أن تكون بديلًا لقوائم هذا الكرسيِّ القديم تحتي. في منتصف المنظر صورةٌ للجار العجوز، بنصف ابتسامةٍ وفخرٍ كامل، مرتديًا زيَّه العسكريّ. في كلِّ مرَّةٍ كنت أنظرُ فيها إلى هذه الصورة، ينتابني شعورٌ من قَبيل أنَّني أنظرُ إلى صورة قائد جيش. تساءلتُ عن الإنجازات التي حقَّقها حتى يلتقط صورةً كهذه. إنَّ أيَّ اعتدادٍ بنفسه كان عليه أن يتلاشى في اللحظة التي يدخل فيها هذه الشقَّة ليُشاقي جريرة اختياراته الغبيَّة. في زاويةٍ أقصى اليسار صورةٌ أخرى له بالزيِّ التقليديّ، ولكنَّ وجهه فيها جامدٌ لا يعبِّر عن شيء، كأنَّه كان مُجبَرًا على التقاط هذه الصورة. هنا كان التعبير صادقًا أكثر، ويعكس حقيقةً ما.

كانت هذه السحابة الرقيقة المُضاءة من الدخان، التي عجَّ بها سقف الصالة، كفيلةً بأن تُزِيح أيَّة رائحةٍ أخرى غير رائحة التبغ المحترق. الآن صار هذا المكان أَلُوفًا. أطفأتُ السيجارة بمسند ذراع الكرسيّ، مقاومًا رغبتي في أن أطفئها بالذراع التي تسبَّبتْ في كلِّ هذا. دسستُ علبة أعواد الثقاب في جيبي، ووقفتُ بعد قعدتي التي طالت. من دون تفكير، أمسكتُ بكعبَيْها وبدأتُ أجرُّها نحو المطبخ. خلال ذلك تكشَّفتِ الكثير من العلل، بالإضافة إلى ما كان ظاهرًا منها. كانت ثقيلةً جدًّا بالنسبة إلى شخصٍ بلغ به النحول ما بلغ بي. وددتُ أن يمرَّ كومة الشحم الآن، فهذا وقتٌ مناسب. في منتصف الصالة التفتُّ إلى قائد الجيش المعلَّق، وهمستُ: «أتمنَّى أن أحصل على ترقيةٍ بعد هذا كلِّه».

على بلاط المطبخ كان صوت ارتطام كعبَيْها عاليًا، لأنَّني لم أصل إلَّا وكانت قواي قد أُنهِكَت من ثِقَلها. أعرفُ أنَّ الجثث تصبح أثقل، ولكن هذه هي المرَّة الأولى التي أختبر فيها الأمر، وإن كان ما أقوله قاصرًا لأنَّني لم أعرف وزنها قبل أن تلفظ روحها. الآن لديَّ جزءٌ غير مكتملٍ من الإجابة، وحتى تكتمل على صاحب البناية أن يأتي لرفع سعر الإيجار هذا الشهر.

هل أتركها على حالها هذه؟ من المنطقيِّ أنَّ سيِّدةً مُسِنَّةً ووحيدةً كهذه ستموت في أيَّة لحظة. ولكنَّ الاحمرار الذي يُحِيط بعنقها جرَّاء اعتصاري له قد يكشف أنَّ الأمر تمَّ بفعل فاعل. لا أحتاج إلى هذا التفكير كلِّه في امرأةٍ كهذه. فتَّشتُ في المطبخ عن شيءٍ قد يساعدني في إنهاء الأمر، فبرزتْ بجانب الفرن أنبوبة غازٍ بلونٍ برتقاليٍّ فاقع.

فجأةً سرقتْ انتباهي حركةٌ بطيئةٌ خلفي، شيءٌ خافتٌ إلى درجةٍ لا يمكن تبيُّنُها. تجمَّدتُ في مكاني من الرهبة، وأدركتُ في لحظتها فقط أنَّ باب الشقَّة ما زال مفتوحًا على مصراعَيْه. التفتُّ ببساطة، فلا حلَّ آخر لديَّ سوى مواجهة انكشافي هذا، والتعامل معه حتى لو كان ذلك على حساب المزيد من الجثث.

لم يكن هناك ما يُقلق، فقد قرَّرتْ قطَّة أسفل السلالم اللعينة أن تلعق قدم المرأة العجوز. لا بدَّ أنَّها أحبَّتْ أن تجرِّب لحم البشر الآن، فالقطط لا تنفكُّ ترفع سقف طلباتها في كلِّ مرَّةٍ تجد فيها أنَّ رغباتها مستجابة، وكأنَّها تختبر أقصى درجات احتمالك. اقتربتُ بهدوءٍ محاولًا ألَّا أُجفِلَها، وكانت مستغرقةً في لعق إبهام العجوز المتيبِّس. لا أدري إنْ كان لعقها هذا نابعًا من حبٍّ لهذه

المرأة، أم إنَّه مجرَّد ترطيبٍ قبل أن تقضم قضمتها الأولى. أنا أرجِّح الاحتمال الثاني.

عندما اقتربتُ منها مسافةً كافية، ركلتُها بكلِّ ما فيَّ من فزعٍ عبر باب المطبخ. ألصقتْها الركلة بأحد جدران الصالة، ثم سقطتْ وبدأتْ تدور في مكانها حتى هدأت. كم تمنَّيت أن أفعل هذا، ولكنَّ المكان والوقت لم يكونا مناسبَيْن. أمَّا هذه الراحة التي أشعر بها الآن، فهي مكافأةٌ أكثر من ممتازةٍ لصبري الطويل ذاك.

لعلِّي سأحرقها! سأحرق هذه الشقَّة كاملةً بمن فيها، ولن أسعد أكثر من سعدي بأن تحترق البناية كلُّها أيضًا. عدتُ للتفتيش في جميع أدراج المطبخ. بدأتُ من الأسفل إلى الأعلى. لم يتبقَّ غير خزانةٍ وحيدةٍ حديديَّةٍ معلَّقةٍ في آخر المطبخ، بعد الدولاب المصنوع من رقائق التصفيح المضغوطة من الخشب.

تجاوزت الجثَّة المرميَّة في منتصف المكان برجلَيَّ وعبرتُ نحو الخزانة. قبل أن أفتحها كان يمكن أن أعرف ما بها، حيث إنَّ روائح الشقَّة الممزوجة ببعضها البعض مصدرها هذه الخزانة. لا يمكن لأنفي أن يخطئ. قبل أن أفتحها انتبهتُ إلى مسحوقٍ بلونٍ أخضر فاتح منثورٍ تحتها على الأرضيَّة، وكانت تتركَّز كلَّما اقتربتُ من الخزانة رائحةٌ زهريَّةٌ نفَّاذة.

فور أن فتحتُ الخزانة سقطَ كيسٌ قديمٌ بالٍ من مسحوق السدر، وما إن لمس جزءٌ منه قدمي حتى نُثِر. حملتُ الكيس برفق، محاولًا أن أحافظ على ما بقي فيه من السدر، ثم أفرغتُ

ما بالكيس في إناءٍ حصلتُ عليه من فوق المجلى. لم أحتَج جهدًا كبيرًا. وضعتُ الإناء تحت صنبور الماء وسط حوض المجلى، وفتحتُ الماء بتدفُّقٍ بسيطٍ حتى يمكنُني السيطرة على نسب التجانس تلك، التي تحافظ على تماسكٍ شبه سائلٍ للخليط. كانت رائحة الموتِ تدورُ في كلِّ مكان، حتى إنَّني فكَّرتُ في أنَّها قد اجتازت الشارع إلى الجهة المقابلة للبناية.

للشقَّة رائحة موتٍ آت. كانت الجثَّة أمامي، والإناء ينضحُ برائحة الموت. فكَّرتُ في أنَّني سأسكبُه عليها، فلعلَّها نالت ما تستحقُّه، وهي الآن أكثر استعدادًا لأن تتطهَّر برائحةٍ قادمةٍ من النعيم. ولكنَّها لا تستحقُّ شرفًا كهذا؛ إنَّها امرأةٌ تُقايض الآخرين علبة أعواد ثقابٍ مقابل أن يناموا بين جنبَيْها حتى تشفى.

أيشفعُ لها أنَّها قاست ما قاست؟ وهل حرمانها من نعيم دنيويٍّ قد يشفع لها بنعيم أخرويّ؟ فلتنعم هناك، وإن كنتُ أشكُّ في ذلك. أمَّا هنا فالقرارُ لي، وأنا لن أفعل شيئًا غيرَ أن تكون على هيئتها هذه، حتى تنتفخ عفنًا ويصبح للمكان رائحةٌ تُشبه رائحة الجحيم، لأنَّها ليست أمِّي، ولن تكون أمِّي أبدًا.

سكبتُ كلَّ خليط السدر على رأسي. بدأ يسيلُ فوق وجهي مغطِّيًا كلَّ جزءٍ منه. أحسستُ بأنَّ أجنحةً تنبتُ من ظهري، وأنَّ برودةً لذيذةً تهفُّ من الجنَّة نحو خلايا جسدي، وشعرتُ بسعادةٍ غامرةٍ كتلك التي يشعر بها الفائزون عندما يُبَشَّرون بفوزهم.

خرجتُ بلون الجنَّة على الجزء المكشوف من جسدي، وصبغ هذا اللون اللباس الذي يُغطِّي الجزء غير المكشوف منه. كنت

أخطو بسَكِينةٍ نحو شقَّتي، التي دخلتُها وأغلقتُ عليَّ بابها، بعد أن تركتُ باب العجوز مُشرَّعًا على جهنَّم، كما كانت تُبقيه.

* * *

استيقظتُ فجأةً وأنا مستلقٍ على أرضيَّة الصالة. لا أدري كيف نمتُ هنا، ولكنَّ جسدي لم يدَّخر أيَّ جهدٍ البارحة، فكان لنومةٍ كهذه، وإن كانت لا تشبهني، سببها المقنع.

شغَّلتُ حاسوبي المحمول، وفتحتُ رسالةً كانت قد وردتني عبر البريد الإلكترونيِّ قبل أسبوعَيْن من الطبيبة النفسيَّة، تقول فيها إنَّها لم تسمع منِّي أيَّ شيءٍ منذ أكثر من شهر، وإنَّها، كما تفعل دائمًا، تتمنَّى أن أكون بخير.

في الحقيقة أنا لا أكترث البتَّة لكونها لم تسمع منِّي شيئًا، ولو أنَّني لم أكن أحتاجها الآن لتركتُها من دون أن تسمع منِّي شيئًا الدهر كلَّه، وإن كان من خيرٍ في الأمر فهو في بقائي بعيدًا كلَّ البعد عنها أو عن غيرها. إنَّ من عادتي الملل من الأشخاص، فأنا لا أميل لأحدهم إلَّا عند دهشةٍ ما. ولكنَّ دهشتي صعبة، لا ترضى ولا تطول. لو كانت هذه الطبيبة سيجارةً لاختلفَ الأمر، ولكنَّها لا تعدو أن تكون بشرًا.

قرَّرتُ أنَّ الوقت مناسبٌ لأن أردَّ على رسالتها، فكتبت:

«أهلًا! في الحقيقة، لقد كنتُ غائصًا في أمرٍ ما خلال الفترة الماضية، سأطلعكِ عليه فور أن يتوفَّر لديكِ موعدٌ متاح، وأتمنَّى أن يكون قريبًا».

ثم رحتُ أتصفَّحُ المنصَّة الإلكترونيَّة، التي قرَّرتْ فجأةً أن

تُوقف كلَّ المبالغ الماليَّة التي في محفظتي. رفعتُ التماسًا، كما قرَّروا أن يسمُّوه، وهذا فيه انتقاصٌ من شخصي الكريم، كما أحبُّ أن أسمِّي الأمر. ما هو الالتماس؟ أظنُّ أنَّه شيءٌ أشبه بطلب صفح من شخصٍ كنت قد أخطأتُ في حقِّه، أو شيءٌ من هذا القبيلِ. وأنا، إنْ كنتُ قد أخطأتُ في حقِّ شيءٍ ما أو شخصٍ معيَّن، فسيكون في حقِّ حيوان الكسلان، من خلال جعله امتدادًا لنا نحن البشر. فهم بفعلهم المتنطِّع هذا، أكَّدوا لي أنَّ من واجبنا رفع التماسٍ للكسلان، نطلب فيه أن يعذرنا نحن بني البشر. علينا، وهنا أعني البشريَّة جمعاء، أن نرفع ملتمسًا لحضرة السيِّد الكسلان في عريضةٍ يوقِّع عليها الكبير والصغير، الذكر والأنثى، وما بينهما من أجناسٍ في العالم الأوَّل.

إنَّهم يحاولون إثارة حنقي، الذي سبق أن بلغ ذروته منذ زمنٍ بعيد. ولولا حنقي البعيد هذا لما التجأتُ إليهم في صياغةٍ يحبُّونها، أو من الجيِّد أن أقول لَمَا عملتُ معهم. وحتى أرتاح وأُشبع حنقي، سأقول لَمَا جعلتهم يستفيدون من خبرتي.

والحال هذه، نبت إشعارُ استلام بريدٍ إلكترونيٍّ من زاوية شريط المهامِّ أسفل الشاشة. نقرتُ عليه مباشرة، وقرأت:

«أهلًا أيُّها النرجسيّ! ما رأيكَ بعد ساعةٍ من الآن، أي في تمام الثانية ظهرًا؟».

أجبتُ بأنَّ الموعد مناسبٌ تمامًا.

انتبهتُ في المرآة المنتصبة أمامي إلى أنَّني ما زلتُ ملطَّخًا بخليط السدر. تخيَّلتُ ما الذي ستقوله الطبيبة النفسيَّة فور رؤيتي

telegram @soramnqraa

عبر الكاميرا بحالٍ كهذه. نهضتُ إلى الحمَّام مباشرة. في العادة لا يطول استحمامي، وإن أطلتُ فهي عشر دقائق لا أكثر، وتكون كذلك إذا لحظتُ أنَّ شعرًا في أماكن من جسدي قد طال بشكلٍ مقرف. وفي أغلب الأحيان أنسى، فلا ألمحُ من نفسي شيئًا إلَّا بعد أن يكون من الواجب أن أتَّخذ إجراءً ما، وهذه صياغةٌ كان سيحبُّها القائمون على المنصَّة الإلكترونيَّة. أمَّا الآن، فالقرفُ كلُّ القرفِ إن اتَّخذتُ أيَّ إجراء، كأن أحلقَ شيئًا من شعري لأكون أقرب إلى كوني بشريًّا.

ركلتُ باب الحمَّام بالقوَّة نفسها التي ركلتُ بها القطَّة الغبيَّة ليلة البارحة. لعلِّي استحسنتُ الأمر، حتى تمنَّيتُ لو أنَّني ركلتُ العجوز بالطريقة ذاتها إلى أن تفطس. علَّقتُ على مسمارٍ وحيدٍ مدقوقٍ خلف الباب مباشرةً منشفةً ثقيلة، قضتْ معي سنواتٍ طوالًا، بل إنَّني لا أذكر إن كان لديَّ غيرها يومًا ما أصلًا. فتحتُ المروشَ حتى آخره، ودخلتُ بجسدي النحيل تحته، ثم بدأتُ أفركُ بشدَّةٍ ما علا وجهي ويدَيَّ ورقبتي. ولأنَّ الأمر كان صعبًا للغاية، أخذتُ وقتًا أطول بكثيرٍ ممَّا اعتدت. وقتٌ كثيرٌ بالنسبة لي، ولكنَّني انتبهتُ إلى أنَّ الشعر في جسمي كان قد نبت في أماكنَ لم أعهدهُ ينبتُ فيها، وإنَّني والحال هذه قد سعدتُ بهذا، فما هي إلَّا فترةٌ قصيرةٌ وسأرتقي لوحدي لأبحث عن طريقةٍ للخروج من هذا المأزق، سأرتقي إلى كسلانٍ كاملٍ حتى قبلَ أن تصلني عريضة الالتماس التي ستقدِّمها لنا البشريَّة. وإذا زانَ لي الأمرُ فوق شجرةٍ بعيدةٍ وعاليةٍ بما يكفي، ووصلتْ ورقة العريضة تلك إلى يدي، فإنَّني لن أنزل إلى الأرض لأقضي حاجتي، بل

سأقضيها من علٍ وأمسح مؤخِّرتي بالعريضة.

خرجتُ من دون أن أحلق شعرةً واحدةً من شعرات جسدي، ولم يكن أمامي أكثر من خمس دقائق. لبستُ ثيابي، وإن كنتُ مغطَّى بالشعر أساسًا، الذي حجب كلَّ أعضائي التي لا ترغب الطبيبة ـ أو ربَّما رغبت ـ في أن تراها.

نزعتُ الشاحن من الحاسوب المحمول، وفتحتُه أمامي وأنا على الأريكة بردائي العلويِّ فقط، فهو الجزء الذي سيظهر في الصورة، ولا حاجة بي إلى تغطية الباقي، وإن كنتُ مرتديًا شعري بشكلٍ كافٍ جدًّا في حال حدثَ أمرٌ ما لم أكن أتوقَّعه.

ـ كيف حالكَ؟ بدا وكأنَّنا لن نتحدَّث مرَّةً أخرى مجدَّدًا!

جاء صوتها متقطِّعًا كلغزٍ يسهل تفكيكه.

قلتُ ممازحًا:

ـ لا أريد أن أقول إنَّني بخير، وإن كنت أشعر بأنَّني بخيرٍ نوعًا ما. ولكن لأنِّي أرغب بأن يستمرَّ شعوري هذا لأطول فترةٍ ممكنة، سأقول إنِّي بخيرٍ نوعًا ما، حتى لا أُحسَد.

مال رأسها إلى الخلف، وتسرَّبت ضحكتها إليّ، ثم قالت:

ـ لا يمكنُ حقًّا معرفة إن كنتَ بخيرٍ أم لا، لأنَّكَ في الحالتَيْن معًا تتهكَّم.لم أعُد أميِّزَ بين حالتكَ الجيِّدة وحالتكَ السيِّئة، فالأمر أشبه عند الحديث معكَ باللعب في المنطقة الرماديَّة. كما إنِّي لا أريد أن أحسدك، لذا سأسألك: لماذا نوعًا ما؟ لما لستَ متأكِّدًا هذه المرَّة من أنَّكَ بخيرٍ تمامًا؟

هذا سؤالٌ مُتَوقَّعٌ جدًّا، والأطبَّاء النفسيُّون يسهل توقُّعهم،

telegram @soramnqraa

ويسهل استدراجهم. كلُّ ما يحتاجه المرء هو فهمٌ جيِّدٌ لطريقة عملهم، وهذا ينطبق على كلِّ شيء، إلَّا أنَّ الأطبَّاء النفسيِّين هم أسهل من يمكن التلاعب بهم.

ـ سؤالكِ مُتَوقَّع، وإجابتي جاهزة: إنَّها الحياة! لا شيءَ يمكن أن يُبقِي على صفو سمائكِ طيلة الوقت. كلُّ شيءٍ قابلٌ للعتمة؛ فما إن تسعد حتى تشقى، وما إن تُهدى حتى تُضَلّ. إنَّ الأمر أشبه بالمدِّ والجزر.

من ملامحها المقسَّمة إلى مربَّعاتٍ على الشاشة بجودةٍ سيِّئة، نظرًا إلى بطء الاتِّصال، عرفتُ أنَّها لم تمسك من ردِّي بشيء. ولكنَّها لم تستسلم:

ـ أتمنَّى أن تتسامح مع ما سأقول: أنا أعرفُ هذا التنميق كلَّه، لا حاجة لي بسكِّ الجمل هكذا. هذه إجابةٌ مسطَّحةٌ وجاهزة، من دون أيِّ طعمٍ أو لون. أريدُ أن أعرف حقًّا، وعلى نحوٍ دقيق، كيف ولماذا تشعر بشعورٍ كهذا اليوم؟

ـ يا الله!... أتسامحُ معك؟! يا سيِّدتي، دعيني أبدأ من هذه الكلمة. لا يمكنني إلَّا أن أشيد بهذا الاستخدام الأمثل للمصطلح. إنَّها المرَّة الأولى التي أسمع فيها هذا المصطلح يُقال في الموضع الذي يجدر أن يُستخدَمَ فيه، فالتسامحُ يفترضُ الخطأَ بحقِّ المُتسامَح معه قَبلًا. المجتمعُ المتسامِح هو مجتمعٌ كان متناحرًا في الأصل، ولا أدري كيف للإعلام أن يتشدَّق بهذا التعبير في كلِّ خبرٍ أقع عليه بالخطأ، وأقول بالخطأ لأنَّني لا أتابعُ تلك القنوات البتَّة، لأنَّني ما إن أتابعها حتى تعلق برأسي فكرةٌ لا

تموت، كهذه التي أعدتِ إحياءها الآن. على أيَّة حال، وبما أنَّنا نتحدَّث الآن عن التسامح، فقد تذكَّرتُ ذلك الآن: كنتُ قد حدَّثْتُكِ من قبل عن أخي الهشّ، وقلتُ لكِ إنِّي أتمنَّى أن يكون قد نجا. لقد فكَّرتُ في الأمر مليًّا، وتساءلت: كم لهشٍّ مثله من فرصٍ للنجاة؟ ولكن في الحالتَيْن أنا لستُ متسامحًا مع ما فعل الآن. أشعرُ بأنِّي مُستغَلّ، في الوقت الذي كنت فيه الأجدر بأن أكون ناجيًا.

قلتُ إنِّي سأُجيبُ على سؤالك بوضوح: أنا بخيرٍ الآن، لأنَّني لم «أتسامح». هل تَعِينَ الراحة التي يمكن أن يشعر بها أحدنا عندما لا يتسامح؟ أؤكِّد لكِ إنَّها أكثر من الراحة التي يشعر بها المتسامحون، وهذا لأنَّ المتسامِحَ يندم إذا ما اختلى بنفسه. كما أنَّ التسامح فيه شيءٌ من الإجبار؛ أنتَ تضغطُ على نفسكَ لتُسَامِح. أمَّا أنا فقد تركتُ لنفسي أن تأخذَ حقَّها، أن تقتصّ، والقصاصُ لا يمكن أن يكونَ بالفعل ذاته أحيانًا، بل علينا حساب التكاليف كذلك. ولأنَّ ما كان من أمر جارتي قد كلَّفني الكثيرَ من تماسكي، وأظهر منِّي ما كان مُخَبَّأ، كما زادَ من وضوح اهترائي أنَّها أبصرَتْه فيّ، أبصرَتْه حتى ظنَّتْ أنَّ خدمةً بسيطةً بإمكانها أن تُسقطني. لقد كانت تتبيَّن الثقوبَ فيّ، متجاهِلَةً أنَّني مُتَبيِّنٌ أنَّها العامل الرئيس والمساعد في آنٍ معًا. لذا، فإنَّني أنهيتُ ما كانَ ينبغي أن يُنهى منذ المرَّة الأولى. لقد أرسلتُها إلى جهنَّم، هناك حيثُ يقطن الكثير من العجائز الذين ساهموا في ثقب الآخرين بالجنَّة. لم أحتمل التأجيل، إنَّه حقِّي منها، كما أنَّني لم أُشفَ بعد، ولكن ماذا عساي أفعل أكثر؟! الآن بإمكاني فهم كيف

للتعذيب أن يكون أكثر إمتاعًا من القتل، ولكنَّ قهري كان أسرعَ من شبعي.

في القنطرة ـ هذا إن نجت ـ ذلك المكان الذي ستُقاصصُ فيه يومئذ، سأكون متأنِّيًا أكثر، وبعد ذلك لن يضيرني أن تُكِبَّ على وجهها مُخَلَّدةً في النار. أم إنَّها ستجد خلاصها في القنطرة؟ في الحالَتَيْن سأصرخ في وجهها: «الآن أخذ الله حقِّي منك، ولكنَّني أَسَعدُ لأنَّه تركني أفعل ذلك بيدَيَّ أيضًا». أيُّ عدلٍ سيكون لو لم تكن هناك قنطرة؟ إنَّ العدلَ دائمًا أن تأخذَ من الآخر ما أخذَ منك، وتزيد كلَّ تَبِعاتِه؛ أن تستخلص الدَّين والفوائد، وأنا لا أدري إن كان هذا كافيًا.

خيَّمَ بيننا صمتٌ أفهم منطقه، لذا تركتُه يضرب أوتاده، قبل أن تقتلع هي تلك الأوتاد بغتةً بقولها:

ـ أَلَمْ أقُل لكَ إنَّكَ بحاجةٍ إلى مساعدة؟ لماذا أبعدتني عنك؟ كان بالإمكان أن تؤول الأمور إلى أفضل ممَّا آلت إليه، ولكنَّك أَبَيتَ إلَّا ما تعتقد. الآن عليكَ أن تهدأ، وإن كنتُ لا أدري كيف سيكون ذلك مع ذنبٍ كهذا الذي اقترفت... اسمع، أنا آتيةٌ إليك... أعطني العنوان الخاصَّ بـ...

أغلقتُ شاشة الحاسوب مباشرة، قبلَ أن تتمادى هذه المريضة أكثر. تخيَّلتُها ممدَّدةً على أرضيَّة الشقَّة. الحقيقة أنِّي أودُّ ذلك حقًّا، كما أرغب كذلك بأن أُمدِّد بجانبها كومة الشحم، والمدير التنفيذيّ، والكثير من الخَلق الآخرين، حتى يستعصي عليَّ أن أخطو خطوةً واحدةً جرَّاء الجثث المُمدَّدة من حولي.

سيكون مريحًا جدًّا أن أستبدل ملابسي المتناثرة بجثثهم. ولكنِّي بحاجةٍ إليها، إلى ذلك الضمير الذي سيقتلها ويدفعها لأن تُصلِحَ كلَّ شيء. أمَّا أنا فلا ذنب لي، كما أنَّني هادئٌ جدًّا جدًّا، وسأبقى كذلك إلى أن ألتقي العجوز مرَّةً أخرى في القنطرة.

والآن، كلُّ ما عليَّ فعله بعد ذلك الدشِّ الدافئ أن أرخي جسدي على الأريكة الوثيرة، وأُديرَ أغنيتي المفضَّلة لنينا سيمون: «آم فيلينغ غود».

* * *

ثم كأنَّ جسدي بلا رئتَيْن، أو أنَّ قوَّةً لا تسعني لتعبئتهما لو كانتا داخل جسدي. عيناي وكأنَّهما ستقفزان من محجرَيْهما. كلُّ ما يمكنني سماعه، أو الشعور به، هو تلك الدقَّات السريعة لقلبي، وكأنَّه موزَّعٌ في كلِّ جزءٍ من أجزاء جسدي. أُجاهِدُ في سحبِ اليسير من الهواء، من دون جدوى. أقفُ مفجوعًا، ولا أدري كيف فعلت. أنطلقُ مختنقًا إلى الحمَّام، وأنظرُ إلى المرآة. لم أكن أنا، بل كائنًا آخر. فتحتُ الماءَ لأغسله عنِّي. أدخلتُ وجهي تحته، ثم أفرجتُ عن شهقةٍ كبيرةٍ سمحتْ بكلِّ الهواء الذي حولي بأن يعبر إلى رئتَيّ.

رائحةٌ قادمةٌ من الجحيم في كلِّ مكان. للإنسان فور نفوقه رائحةٌ أقدر أن أجزم بأن لا شيءَ يجاريها في الكراهة. فمن مكاني هذا، وبعد اثنَتْي عشرة ساعة، بدأتُ أشتمُّ رائحة جثَّة العجوز، ممزوجةً برائحة جثَّة القطَّة، على نحوٍ يسهل التفريق بينهما. تلك المروحة الصغيرة تدير الرائحة في المكان، فهي

تشفطها من تحت الباب، ثم تُديرها إلى الخارج عبورًا بأنفي. وهكذا أستطيع تخيُّل حجم العفن والانتفاخ الذي وصلت إليه الجثَّة في الشقَّة المجاورة.

البناية مستنفرةٌ بأكملها، وحدي كنتُ هادئًا، أستمعُ إلى جلبة الناس في الخارج يجيئون ويروحون. لم يحملني شيءٌ على فتح باب شقَّتي منذ أيَّام، حتى رائحة الجحيم تلك، فقد اعتدتُ التعايشَ مع ما هو أنتنُ منها. اعتدتُ التعايشَ مع البشر، وهم قبل أن يصلوا إلى هذه المرحلة نتنون، ولكن في دواخلهم، حتى إذا ماتوا فاح نتنهم الداخليُّ في الأرجاء، وسَهُل الانتباه إليه.

كلُّ ما كنتُ أفعلُه في الأيَّام الماضية هو حرقُ سيجارةٍ في إثر أخرى، لأخفِّف من وطأة رائحة العفن. وددتُ لو أنَّني أحرقتُ المكان بما فيه، ولكن هذا مجرَّدُ اندفاع لن يؤدِّي إلى شيء. ثم إنَّه سيُريح قاطني البناية وصاحبها المكوَّر، وهذا سيكون على حساب خلاصي الوحيد. من الجيِّد دائمًا أن يشتمَّ الناس حقيقتهم، فهذا سيفيدهم لأسبوعٍ أو أسبوعَيْن، قبل أن يعودوا لنسيان من هم.

أخيرًا، أسمع طرقاتٍ خفيفةً على بابي. لقد جال في بالي أنَّني لن أسمع شيئًا اليوم إلَّا وقع خطوات الهلعين. قمتُ ببرودٍ تامّ، والتقطتُ سترتي السوداء المعلَّقة على المشجب خلف الباب، فهذه المرَّة كان الأمر يستحقُّ أن أقلِّل الاحتكاك، وأعمل بتلك النظريَّة على خلاف ذهابي إلى العمل. وضعتُ القبَّعة على رأسي، ثم بآخر عودِ ثقابٍ متبقٍّ في العلبة، أشعلتُ سيجارتي. وبالبرود ذاته فتحتُ الباب.

telegram @soramnqraa

داهمتني على الفور رائحةٌ نتنةٌ كثيفة، كما لو أنَّ العجوز نفسها هي مَن تطرق بابي. شعرتُ بغثيانٍ عزوتُه إلى تعرُّضي لكمِّيَّةٍ مضاعفةٍ من القرف، حيثُ إنَّ الطارق كان صاحب البناية. اللعنة! لا بدَّ وأنَّ العجوز منتفخةٌ الآن هي الأخرى.

بالكاد أمكنني أن أرى ضابط خَفَرٍ يقفُ خلف كومة الشحم. كان جزءٌ من بزَّته يظهر بين حركةٍ وأخرى للكومة، التي لا تنفكُّ تتحرَّك باستمرار. كان ينظر إليَّ للمرَّة الأولى بالنظرة ذاتها التي كنت أنظر بها إليه. كان كرهًا يكاد يقفز من عينَيْه نحوي، بينما كنت باردًا، أنظر إلى منتصف وجهه نظرةً تعلوها الثقة والهيبة. تقدَّم الضابط ووقف أمام صاحب البناية، ثم ابتسم لي ابتسامةً رسميَّة، وكأنَّه يقول: أرجوكَ لا تُسبِّب لي المتاعب، ثم قال:

ـ لقد وَرَدَنا بلاغٌ بجريمة قتلٍ وقعتْ في الشقَّة المجاورة. عُثِرَ على ساكنة الشقَّة مقتولة، هل تعرفها؟

بادلتُهُ الابتسامة الرسميَّة ذاتها، وكأنِّي أقول له: أرجوك، مَن يقف خلفكَ مباشرةً هو السبب الرئيس في كلِّ شيء، ثم رددتُ:

ـ نعم! كيف لا وهي جارتي؟ لقد طلبتُ منها البارحة أعواد ثقابٍ فأعطتني. أعرفها جيِّدًا!

ارتسمتْ على وجهه مشاعر ارتياحٍ كبير، وقال:

ـ إنَّنا بحاجةٍ إليكَ في المركز. لدينا بعض الأسئلة التي نرغب في أن تُجِيب عنها هناك.

أغلقتُ باب شقَّتي على نحوٍ يُنبِئ بموافقةٍ فوريَّة، وأنْ لا شيءَ لديَّ لأُخفيه. أفسح لي الضابط الطريق لأنزلَ أمامه. لقد

تعلَّموا جيِّدًا أنَّ الثقة لا تُعطَى لكلِّ من هبَّ ودبّ، وأنا أفهم ذلك تمامًا، لأنَّني لا أعطيها البتَّة حتى لِمَن لا يهبُّ ولا يدبّ.

أثناءَ مروري بجانبِ كومة الشحم ـ الذي بدا وكأنَّه لم يُفسِح الطريق لي، حتى إنَّني اضطررتُ عند مروري إلى أن أُلصِقَ ظهري بجدار الدرج، بينما كرشه تحكُّ أسفلَ صدري حتى ركبتاي ـ قال لي:

ـ أيُّها القاتل! عندما يصبح المكان مكانكَ افعل ما شئت، ولكن تَعَلَّم ألَّا تتغوَّط في أملاك الآخرين.

إنَّه يتحدَّث من خلفيَّةٍ رأسماليَّةٍ لا أخلاقيَّة. لم يحدث أن شككتُ يومًا بأنَّه بلا أخلاق، وأنَّ كلَّ ما يهمُّه هو المحصِّلة النهائيَّة من المادَّة التي تسقط في جيبه. إنَّه يقول ببساطةٍ إنَّ بإمكاني أن أقتل في مكانٍ أملكه، ولكنَّ هذا لا يجوز في الأماكن المستأجَرة. سحبتُ نَفَسًا طويلًا من سيجارتي، ثم نفثتُ دخانها في الهواء، وأرجعتها إلى فمي لأبصقها في وجهه. فعلتُ ذلك بالطريقة ذاتها التي بصقتُ بها السيجارة في وجه العجوز الهامدة، على بُعد بضعة أمتارٍ فقط من بطنه. قلتُ بنبرةٍ حادَّةٍ وعينَيْن صارمتَيْن:

ـ فقط حين أفصلُ رأسكَ عن جسدكَ سأتشرَّف بأن أكون قاتلًا.

نزلتُ وأنا أشتمُّ إلى جانب العفن شياط غضبه، وربَّما شمَّه الضابط السائر خلفي أيضًا.

* * *

telegram @soramnqraa

في غرفةٍ ضيِّقةٍ بضوءٍ خافت، كان الهواء البارد يغصُّ بأنفاسي جرَّاء نقص التهوية هذه المرَّة. ظللتُ متصلِّبًا بلا حراك طيلة الساعات الخمس التي كنت أنتظر فيها، كما لو أنَّني تدرَّبتُ قبل اليوم على أمرٍ كهذا. والحقُّ أنَّ زنزانةً كالتي أنا فيها الآن كفيلةٌ بأن تُرهِبَ غيري، إلَّا أنَّ غرفتي لا تتَّسع عن هذه الغرفة إلَّا بأمتارٍ مربَّعةٍ قليلة. وأنا أكره الضوءَ كما لو كنت خفَّاشًا، أمَّا الهواء هنا فهو أنقى بكثيرٍ من رائحة الجثَّتَيْن المتعفِّنَتَيْن هناك. هذا كلُّه جعل من هذه الغرفة الضيِّقة جنَّةً واسعة.

بعد ساعاتٍ دخل المحقِّق بوجهٍ متجهِّم، وهذه عادةُ المحقِّقين عندما يكون لديهم ما يبحثون عن تأكيدٍ له. جلس على الكرسيِّ الحديديِّ في الجهة المقابلة لي، تفصله عنِّي طاولةٌ حديديَّةٌ كذلك. دخل في إثره رجلٌ في منتصف العمر، يسهل من هيئته معرفة أنَّه لا ينتمي إلى هذا المكان.

سحب الرجل الثاني كرسيًّا ثالثًا كان في محيط الطاولة إلى ركن الغرفة، وظلَّ يُحدِّق فيَّ بانتباهٍ مُفرِط. قال بنبرةٍ تشبه الفحيح، ولكنَّها نبرةٌ واثقة:

ـ قُل كلَّ شيءٍ تعرفه.

لم أُحرِّك جزءًا منِّي من مكانه. حتى عندما رمشتْ عيناي بدا الأمر غريبًا لوهلة، إلى أن تكرَّر ذلك كفاية، فأجبت:

ـ كلُّ ما أعرفه هو أنَّني سأبيت الليلة في ثلَّاجةٍ كهذه، ولكنَّني لا أعرفُ كلَّ شيء. ما أعرفه فقط هو أنَّني هنا لأنَّكم وجدتم جارتي ميِّتةً في الشقَّة المجاورة.

telegram @soramnqraa

كان واضحًا على وجهه الملل، وكأنَّه هو من كان ينتظرُ ولستُ أنا. ولكنَّني كنت أريد أن أدري ما يدريه، وعليَّ أن أضبط إيقاع قلقي جيِّدًا حتى لا يفرطَ منِّي الكثير ثم أفقد زمام الأمور، ولذلك لم أتحدَّثْ كثيرًا، وإن فعلتُ لم يكن في حديثي شيءٌ ذو قيمة. ظلَّ يلعبُ وأنا أسايره في اللعب، حتى انزلقَ ملله ذاك من وجهه إلى لسانه، وقال:

ـ لدينا شاهدٌ يمكنه أن يؤكِّد أنَّكَ قتلتَ تلك الأرملة. وأنا، حتى الآن، لا أريد إلَّا أن أسمع منكَ ما حدث بالتفصيل؛ فإن صدقتنا القول جنَّبتنا كثيرًا من الجهد وخفَّفتَ عن نفسك العقوبة، إذ سنضع ما تقول تحت بند التعاون مع القانون.

ما إن أنهى حديثه حتى وُلِدَت قهقهةٌ قويَّةٌ في جوفي، ولكنَّها ارتسمتْ كابتسامةٍ عريضةٍ على فمي، حيث فشلتُ في كتمها؛ فكيف للقانون هذا أن يعتبر الاعتراف بجريمةٍ ما تعاونًا من شأنه أن يجعل المجرم ينال عقوبةً أخفّ. إنَّ البشر في أحيانٍ كثيرةٍ لا يكفُّون عن إدهاشي بقدرتهم على الالتفاف على قوانينهم «الصارمة». هذا كلُّه يحدث في ظلِّ قانونٍ ما، كيف كان البشر سيتعاملون مع بعضهم بعضًا في غيابه إذًا؟

على الأرجح، ليس حديث الضابط أكثر من استدراج، لكن حتى وإن كان مجرَّد استدراجٍ فهذا فيه اعترافٌ ضمنيٌّ بسذاجتي. عمومًا، بإمكاني أن أستخدمَ أسلوب البشر للالتفاف كذلك على استدراجه هذا.

بعد نَفَسٍ يُعَبِّر عن ثقلٍ أُوشِكُ أن أتخفَّف منه، قلت:

ـ حسنًا! إنَّ تلك الأرملة العجوز معطوبة النَّفْس، لقد أكل منها الفقد والحرمان ما أكل، لذا لا أدري لماذا تُبدِّد السلطات وقتها في التحقيق في مقتل امرأةٍ مثلها. على أيَّة حال، لقد نبشتْ عشَّ الدبابير فيّ، ليس مرَّةً واحدةً بل مرَّتَيْن، وفي المرَّة الأخيرة كان على الدبابير أن تنتقم للخراب الذي حلَّ بعشِّها. يمكنكَ القول إنَّني قتلتُها، ولكنَّني أؤكِّد لكَ إنَّني دافعتُ فقط عن التماسك الذي كنتُ أحاول أن أحافظ عليه. لقد حذَّرتُها غير مرَّة، ولكنَّها استثارتْ بي بركانًا حاولتُ الحفاظ عليه خامدًا طول الوقت. كلُّ ما هنالك أنَّني كنتُ أنوي النزول لشراء قدَّاحةٍ أو علبة أعواد ثقابٍ ليس أكثر، ولكنَّ الأمر آل إلى الأفضل لي ولها. لقد حاولتْ شرائي بعلبة أعواد ثقاب، فنقدتُها جهنَّم كلَّها مقابل ذلك.

التفت الضابط نحو الرجل الغريب في ركن الغرفة سريعًا، بينما لم يكن الرجل قد أزاح نظره عنِّي، ثم عاد إلى النظر نحوي، وقال على عَجَل:

ـ هذا جيِّد!... هذا جيِّد!

وقفَ الضابط، وفكَّ عن حزامه من الخلف أصفادَه المعلَّقة. وقفتُ مباشرة، ثم استدرتُ جاعلًا ظهري مقابلَ وجهه، وجمعتُ يدَيَّ خلفي. شعرتُ ببرودة الأصفاد وهي تضيق على ساعدَيّ، كما لو أنَّها لم تَضِق على ساعدَي أحدٍ قبلي.

طلب منِّي الضابط مغادرة الغرفة قبلهما. في بهو مركز الشرطة، كانت المكاتب تحيط بكامل المكان.

telegram @soramnqraa

ـ من هنا.

قال الضابط، وهو يتَّجه نحو مكتبٍ كبيرٍ مقوَّسٍ في منتصف البهو. تمتم بشيءٍ للشرطيِّ القاعد خلف المكتب، والذي ناوله ملفًّا لا يحوي سوى ورقةٍ واحدةٍ أو ورقتَيْن، ثم انكبَّ يكتب.

بعد أن أنهى كتابته، ناولَ الرجل الذي لا ينتمي إلى هذا المكان الورقة، فالتقطها وابتعد إلى طرف المكتب المقوَّس، بينما ألقى الضابط بالملفِّ على سطح المكتب حتى استقرَّ أمامي. فتحه وأفرد ورقتَيْن كانتا في جوفه. لم يكن في الورقة الأولى شيءٌ لا أعرفه، سوى أنَّهم تلقُّوا بلاغًا في تمام الساعة الرابعة من مساء يوم الأحد، الموافق 25 نوفمبر 2018، من الطبيبة النفسيَّة، تقول فيه إنَّ أحد مرضاها أخبرها بأنَّه أقدمَ على قتل جارته العجوز. الساعة الرابعة مساء! لقد أخذ منها الأمر ساعةً ونصف الساعة حتى فعلتْها! ظننتُ أنَّها ستُقدِم على ذلك بشكلٍ أسرع. ثم لماذا قالت إنَّني أحد مرضاها؟ هل تُشكِّل حالةٌ كهذه مناسبةً لفرد العضلات الطبِّيَّة؟ لقد أكَّدتُ لها مرارًا أنِّي كنتُ أستخدمها لتزجية الوقت لا أكثر. ربَّما كان عليَّ خنقها هي الأخرى! لا بأس، فالأطبَّاء يفعلون ذلك دائمًا. هم لا يهتمُّون بالتوقيت المناسب أبدًا، وإلَّا لَمَا أضاعوا عمرًا في أن يكونوا أطبَّاء.

يظهر في تذييل الورقة الأولى معلومات البناية بشكلٍ دقيق. لم أستغرب الأمر أكثر من ثوانٍ معدودة، ثم فهمتُ أنَّ تطبيق الطبِّ النفسيِّ الذي أستخدمُه يُفلِتُ كلَّ اشتراطات الخصوصيَّة التي بين الأطبَّاء والمرضى فور أن تلوح في الأفق أيَّة حالة اشتباهٍ أمنيّ. في مثل هذه المواقف يصبح لتوقُّع الأسوأ فائدةٌ دائمًا.

نقلتُ نظري إلى الورقة التالية. كانت معنونةً بـ «محضر استجواب». لقد أجبتُ حينما أردت. لم يكن هناك أيُّ استجواب. إنَّها كلمةٌ مُنَفِّرة، تُذكِّرني الآن بكلمةٍ تشبهها جدًّا: «استحلاب»! ربَّما سمعتُها في فيلم وثائقيٍّ عن مزارع الأبقار في دولةٍ نائيةٍ من دول العالم الثالث الزراعيَّة. مرَّرتُ عينَيَّ بسرعةٍ على ما في الورقة، فما كان استجوابًا في أوَّله لن يثير فيَّ أيَّ فضولٍ لمعرفة ما بثانيه. كانت الورقة تُبيِّن مجريات الحديث، وقد وقَّع عليها الضابط ملاحظةً صغيرةً تقول إنَّ المتَّهم قد أبدى تعاونًا كاملًا أثناء تلك المجريات. لماذا إذًا أسميتموه استجوابًا؟ في آخر الصفحة كان عليَّ أن أبصم بإبهامي على صحَّة ما كُتِب. كنت سأفعل ذلك مباشرةً احترامًا لكلمةٍ أو كلمتَيْن، لولا أنَّ يدَيَّ مصفَّدتَيْن خلف ظهري، بالإضافة إلى أنَّني أرغب حقًّا في الاعتراض على العنوان الذي في أعلى هذه الورقة. وددتُ للحظةٍ أن أطلب تغيير الورقة، وأن يتمَّ عنونة الورقة الجديدة بأيَّة كلمةٍ أخرى، من قبيل «جواب»، أو «اعتراف»، أو أيِّ شيءٍ آخر.

مدَّ الرجل الذي لا ينتمي إلى المكان الورقة الثالثة إلى الضابط. نظر إليها الضابط قليلًا، ثم أفردها أمامي بجانب الورقتَيْن. كان العنوان هذه المرَّة لا بأس به: «تقرير الطبيب النفسيِّ المرافق»، لذا استسغتُ أن أُكمِلَ قراءة ما بها:

«بعد الاطِّلاع على التقرير الطبِّيِّ المُرفَق لنا من الطبيبة النفسيَّة المُعالِجة للمتَّهم، وبعد حضور جلسة التحقيق معه، تبيَّن لنا صحَّة ما جاء في تقرير الطبيبة من تشخيصٍ للحالة. وعليهِ فإنَّنا نُوصي بأن يتمَّ مراعاة ذلك عند النظر في هذه القضيَّة، على أن لا

يُغفَل عن ضرورة استكمال جلسات العلاج النفسيّ».

أخرجَ الطبيب النفسيُّ المرافقُ مُغلَّفًا عليه ختمٌ بكلمة «سرِّيّ»، وضع تقريره في داخله وأغلقه.

لا رغبة لي في معرفة تشخيص الطبيبة النفسيَّة الدقيق، فأنا أعي جيِّدًا أنَّ العلَّة لصيقةٌ بأنفسهم، لا بنفسي، ولكنِّي سأتواطأ هذه المرَّة مع العالم المريض، فقط لأنَّها الطريقة الوحيدة للنجاة منه. فكَّ الضابط الأصفاد من حول معصمَيّ، ثم طلب من الشرطيِّ الواقف خلف المكتب لوحة حبر البصمات. ضغطتُ بإبهامي الأيمن على إسفنجتها الزرقاء، ثم نقلته إلى مكان البصمة على ورقة محضر الاستجواب المستفِزَّة تلك، وركَّزتُها تحت كلمة المتَّهم في آخرها. أرجع الضابط الأوراق كلَّها إلى بطن الملفّ. قمتُ بوضع قبَّعة سترتي السوداء على رأسي، قبل أن يصفِّد يدَيَّ ثانية، ثم قال:

ـ اتبعني.

عند باب المركز، كانت سيَّارة الشرطة واقفةً بالطول؛ مقدِّمتها نحو الشارع، وصندوقها الخلفيُّ نحوي. فتح الضابط درفتَي باب الصندوق الخلفيِّ لسيَّارة الشرطة. تقدَّمتُ نحوه خطوتَيْن فقط. هززتُ رأسي يمنةً ويسرةً حتى سقطتِ القبَّعة عنه. نظرتُ إلى الأفق الذي يتباهى به العالم، وبصقتُ عن يميني، ثم ابتسمتُ ابتسامةً شامتة؛ فلا شيء يضاهي أن تسجن العالمَ دونك؛ لا يهمُّ في أيَّة جهةٍ تكون، ما دامتْ بينكَ وبين العالم القضبان فأنت حُرّ... وركبتُ.